وثيقة حق عن ثورة حق

السؤال كان في الضمير والعقل ، : هل كان ضروريا تقديم عدد احتفالي من « المعرفة » في مناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لثورة الثامن من آذار ؟

ومبرر السؤال ان المجلة لم تعتمد الاعداد الاحتفالية ، فنهجها ، بدلالة الاسم ، معرفي بحت ، يختص بالشامل والاوسع ، دون الخصوصية .. فاذا كانت الخصوصية ، فانها في مجال الاخص : الفكر والثقافة وابداعات المبدعين .

والجواب واضح في تضاعيف هذا العدد ، دعونا الصياغ لصياغته . فاستجابوا ، لعله يكون الحلية على امتداد مسيرة هذه المجلة ، يرفد الاحتفال باحتفال الكلمة الرفيعة ، ويضيف الى المناسبة ذخراً تحتاجه ، وقد بلغت سن النضوج .

ولسنا ميالين الى مبررات الاختصاص ، وتسويغ الاعداد الخاصة ، وهذا العدد الاخص . سوى . لا بد من نقاط توضع فوق حروف ، لا لتستهل القراءة . او لتستطاب . بل لتبيان الحقيقة . مدخلا الى حقائق المحتوى .. ومن هذا المنطلق نقول :

ربع قرن ليس بالزمن الكبير على مقياس التاريخ ، لكنه كبير على مقياس التاريخ العربي وحركاته الموصوفة ، بـل الحركات الثورية فيه ، المجهضة باستمرار ، لهذا السبب او ذاك ، وبفعل عوامل ذاتية وموضوعية .

وليس كثيرا ان تستمر ثورة الثامن من آذار ربع قرن من الزمن دون نكوص نهائي ، او فشل مميت..وفي المؤشرات انها ستستمر على درب الظفر . لانها :

ــ كانت الرد الحاسم والصارم على ردة المرتدين .
ــ نبعت من اعماق الشعب ، وجاءت استجابة لابناء الشعب ، وتقصد سواده الاعظم ، وتحققت بايد نقية نقاء منبتها ومنبعها الاصيل .

ــ لم تكن انقلابا طارئا بل تحققا من القوة الى الفعل .. من النظرية الى التحقق ، ومن الكلمة الى التجسد . لانها فعل حزب ، راسخة منطلقاته ، وليس فعل مغامرين .

ــ متانة الجدار تبدأ من اساسه .. مقولة لا تحتاج الى برهان ، واساس ثورة الثامن مـن آذار كان صلباً في ركائزه : الوحدة والحرية والاشتراكية .

وتقتضي الموضوعية ان نقول : ان التجربة على الارض العربية . كانت الاولى ، لا سابقة لها .. وفي التجارب لا بد من هنات هنا وهناك .. المراوحة احياناً ، او الحيرة ، او التردد ، بل الخطا ايضا ، ولا بد من تسرب احجار هشة الى البناء ، او احجار نافلة المقاس .. وعلى المقياس البشري ستظهر انحرافات في المداميك نحو اليمين او اليسار . وذاك امر طبيعي ، ما من ثورة الا عرفته ، وقد عرفته ثورة الثامن من آذار .. ومعلمو الحرفة الماهرون ، وحدهم القادرون

على اكتشاف الانحرافات . وتصحيحها ، وقد اثبتت الثورة معلميها المهرة .. بل معلمها الفذ حافظ الأسد ، الذي قاد التصحيح.وإذاك استكملت الثورة بنود استمرارها،ومشروعية وجودها . إذ امتلكت بوصلة الأمان . يقراها ربانها ، لا بمهارة وحسب ، بل بايمان راسخ في عمق ذاته الصلبة والجريئة والمخلصة ، ويقود دفتها الى مرافىء السؤدد . وشواطىء الرغد والحرية المنشودة .

والمدهش ان تتحول سورية ، موطن ثورة الثامن من آذار الى رمز لامة ، وراس حربة لا يلين في وجه السافر والمتخفي من وجوه العدو وواحة خضراء لكل المنضوين تحت الضاد العربية ، وجدار يسند انهيارات هذه الامة بدفع من ركوع بعض حاكميها ، وتهاون البعض ، واوهام البعض بان الحلول تاتي بالمهادنة ، او الملاحقة ، او انتظار ما لن ياتي من متغيرات في بنية الامبريالية العالمية .

وبعد .. ما اكثر ما يجب ان يقال تمهيداً لعدد خاص عن ثورة الثامن من آذار ، لا الكلام الشاعري المنمق ، بل المعبر عن حقائق قائمة ، وما اوسع خرائط الحقائق ، في هذا الموضوع والذي يهمنا هنا ان يكون هذا العدد وثيقة حق عن ثورة حق ، تضاف الى موسوعة الحقائق ، وتكون صفحة ــ مجرد صفحة ــ في موسوعة المجد التي بدات غلافاً من ضياء قبل ربع قرن . وستستمر ، مضيفة صفحات مجد وانتصار .. في كل حين .. .

« المعرفــة »

الخطاب التاريخي

للقائد الأسد

في الذكرى الخامسة والعشرين

لثورة آذار

القى الرئيس القائد حافظ الاسد الكلمة القومية الهامة والشاملة التالية ، في المهرجان الكبير الذي أقامته القيادة القطرية للحزب في قصر الفيحاء بدمشق ، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لثورة الثامن من آذار المجيدة .

ايها الاخوة المواطنون ،

ايها الرفاق ،

الناس في حسابهم للزمن وتقويمهم للاعمار مشارب ومذاهب ، فمنهم من يحسب العمر بعدد السنين حتى وان كانت عجافا ، ومنهم من يحسبه بما اثمرت السنون وانتج الانسان فيها ، ومنهم من يجمع في حسابه بين هذا وذاك . وخير حصيلة هي حصيلة العمر المديد الحافل بالثمر الوفير .

وليكون الحكم منصفا على ثورة الثامن من آذار ، في بـدء عامها السادس والعشرين ، يجب ان توزن الامور بميزان الزمن والنتائج ، وان يكون الحكم بموجب ما كان قبلها وما حدث خلالها ، وما وصلت اليه حتى الآن . وهذا الحكم المنصف يرشدنا الى الصواب ، فنجد ان الاختلاف واسع والفرق كبير بين مرحلتين يفصل بينهما تاريخ الثامن من آذار ١٩٦٣ .

وانه ليسـعدني ان يجمعنا هذا الاحتفال احتفـاء بالعيد الخامس والعشرين لثورة الثامن من آذار التي شقت طريقها عبر الشدائد ووسط الصعاب لتشكل المرحلة الاهم في تاريخ سورية الحـديث ، ولتكون الصخرة التي تكسّرت وتتكسّر عليها مؤامرات الاعداء ، ولتبقى مثلما بدات عزيزة بجماهير شعبنا وامتنا ، ثابتة على المبدا .

اليوم الموعود

في صبيحة مثل هذا اليوم من عام ١٩٦٣ ، اشرقت في سماء قطرنا شمس الثورة ساطعة ، فنشرت اشعتها ، على ربوع هذه الارض الطيبة ، مبشرة بعهد جديد ، يبدد ظلام عهود الاستعمار والرجعية ، ويقضي

على سلبياتها ورواسبها ، ويهدم هيكل الفكر الانفصالي ، عهد بدانا به مسيرة الوحدة والحرية والاشتراكية .

ولم يكن الثامن من آذار قفزة في المجهول ، او مغامرة غير محسوبة، بل كان اليوم الموعود الذي ترقبته جماهير شعبنا بعد أن ناضلت طويلا من اجل حلوله ، لتجعل منه التاريخ الفاصل بين مرحلة ومرحلة ، بين مرحلة ضعف في كل مجال ، ومرحلة بناء وتقدم وقوة في كل مجال .

كان الثامن من آذار اليوم الموعود الذي ظهرت ارهاصاته في مبادىء حزب البعث العربي الاشتراكي ، واهدافه ، وفي نضاله على ساحة الوطن الواسعة رافعا راية الوحدة والحرية والاشتراكية ، متفاعلا مع آلام الامة العربية ومعبّرا عن آمالها ، ومستنبتا من هذه الآلام والآمال منهاجه ومنطلقاته .

وحين تقدمت طليعة البعث يوم الثامن من آذار عام ١٩٦٣ لترسي اساس الثورة ، انما كانت تستجيب لتطلعات الشعب واماني الامة ، وكان وراء تحركها في ذلك اليوم الخالد تاريخ مجيد سطره شعبنا وجماهيرنا على مدى زمن طويل ، في مقاومة الاستعمار والرجعية ، ومقاومة الاحلاف العسكرية ومناطق النفوذ ، كانت طليعة الحزب ، وهي تفجر الثورة في ذلك اليوم الخالد ، تحمل هموم شعبنا في القطر العربي السوري ، وهموم امتنا العربية ، وترنو ببصرها الى المستقبل القريب والبعيد ، وتسمو بفكرها الى المصلحة القومية العليا ، وتعمل من اجل بعث حقيقي للامة العربية ، ينسجم واصالتها وماضيها المجيد ، وتراثها الحضاري الاثيل .

وما ان اسقطت ثورة آذار حكم الانفصال في سورية ، فاعادت الى هذا القطر وجهه القومي الوحدوي الاصيل ، حتى شرعت في عملية بناء واسعة شاملة ، مرافقة بممارسات نضالية قومية جادة ، محققة النجاح تلو النجاح في مسيرتها المظفرة .

وها هي ثورة آذار وقد اتمت عامها الخامس والعشرين تقف كالطود الشامخ ، صامدة صمود الرواسي ، صلبة عميقة الجذور ، وجذورها هي في صفوف الشعب الراسخ في هذه الارض .

الثورة اليوم أقوى وأرسخ

منذ قيامها كانت ثورة آذار قوية بجماهيرها وباهدافها ، وهي اليوم اقوى وارسخ اساسا بالتفاف الشعب حولها ، وبما فجرت من طاقات خلاقة مبدعة ، وبما حققت من انجازات على مدى ربع القرن المنصرم من عمرها .

وكانت منذ قيامها حركة دائمة الى الامام ، حركة رائدة ، تنظيما وفعلا وانتاجا ، وكانت سموا مستمرا في المواقف والتزام المبادىء ، وتجاوبا مع تطلعات الشعب وأماني الامة .

ان صفاء العقيدة ووضوح الرؤية ، والتزام المبدا ، والايمان المطلق بالجماهير وقدراتها ، غير المحدودة ، وتجسيد ذلك ، قد عزز ثقة الثورة بصواب مسيرتها ، وكانت هذه العوامل مصدر تجديد مستمر لحيوية الثورة ، ومبعث تفاؤل بالمستقبل ، وحافزا على اطراد الانجاز والنجاح في سائر الميادين .

واليوم ، في العيد الخامس والعشرين لثورتكم ، الثورة التي قادها حزبنا ، مستلهما مسيرتها من خفقات قلوب الجماهير العربية ، ومن معاناة الكادحين ، نفخر ونعتز بما حققنا بجهود شعبنا ونضاله على مختلف الصعد ، وفي كل الميادين .

ان قيادة الطليعة البعثية التي خططت وقادت وفجّرت الثورة كانت تضع في حسابها الصعوبات التي ستعترض مسيرة الثورة ، وكانت تنتظر ان يكون حجم الصعوبات كبيرا بسبب كبر الآمال التي تستظل بها الثورة وتستنير باضوائها .

ولكن قيادة الثورة كانت واثقة من قهر الصعوبات ، لان احساسها بالمعاناة الشعبية وعظمة الآمال الجماهيرية التي تسترشد بها كان اقوى من كل الصعوبات المنتظرة .

وهكذا ، لم نتردد في مواجهة التحديات التي هدفت الى حرفنا عن الطريق ، رغم كبرها وتنوعها وتعددها واستمراريتها ، حيث برزت منذ الايام الاولى للثورة ، ولا تزال تتلاحق بين الفينة والاخرى ، منذ خمس وعشرين سنة حتى يومنا هذا ، بصور واساليب مختلفة .

واجهتنا العقبات والصعوبات ، وتعرضنا في سورية لحملات ومؤامرات ولكننا تغلبنا عليها بالعزيمة التي لا تلين ، وبالتصميم الذي لا يتزعزع ، وبالتضحيات التي بذلها شعبنا في سبيل كل هدف سام ، وبترسيخ وتعزيز وحدتنا الوطنية فحافظنا على ارادتنا الوطنية حرة غير مقيدة باي قيد ، وحققنا انجازات هامة وكبيرة ، وجعلنا من قطرنا قبلة الاحرار ، وموئل المناضلين في سبيل الحرية والكرامة وحق تقرير المصير ، وجعلنا من سورية دولة عصرية ، قوية منيعة ، صامدة في وجه الاعداء متصدية لهم ، رفيعة القدر مسموعة الكلمة . وجعلنا منها بلد التقدم والاشتراكية . وعنوان النضال القومي ، ومعين العطاء الذي لا ينضب ، والقاعدة التي يستند اليها النضال العربي في الدفاع عن الذات وتحرير الارض واستعادة الحقوق المغتصبة ، ومن اجل وحدة الامة العربية .

لقد كانت الاعوام الخمسة والعشرون الماضية اغنى الاعوام في حياة سورية عملا ومردودا ، وما تحقق خلالها كان كبيرا جدا ، شواهده ماثلة في كل محافظة من محافظات القطر ، وفي كل مدينة وبلدة وقرية ، وهذه الشواهد ظاهرة للعيان في جميع مجالات الحياة التنظيمية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والدفاعية .

فحيثما نظرنا من حولنا نجد معالم جلية وبارزة فيها الدليل الساطع على هذه الانجازات الراسخة الاسس المؤهلة للاستمرارية والنمو .

تعاظم دور الشعب

فلقد تعاظمت ادوار جميع قطاعات الشعب واصبحت اكثر فاعلية وديناميكية ، على قاعدة توسيع وتوزيع السلطة والمسؤولية بما يضمن اوسع المشاركة الجماهيرية في شؤون البلاد ، الامر الذي يجسد الديمقراطية الشعبية وحرية الجماهير ، ويحقق رؤية شعبية اوضح للمهمات المتزايدة في ضوء توجهات البناء والتطوير ، وبالتالي قدرة اكبر على الانجاز والابداع الخلاق في اطار هذه المهمات ، ودفع عملية البناء لتشمخ في خدمة البلاد ويشمخ معها الشعور بالكرامة ، والثقة بالنفس ويعمق حب الوطن والدفاع عنه .

وهكذا ، وضمن اطار المنظمات الشعبية والمهنية والمؤسسات التشريعية والتنفيذية فقد كبر دور العامل ، والفلاح ، والمرأة ، والطالب ، والفنان ، والطبيب ، والمهندس ، وغيرهم من افراد الشرائح الشعبية . ومن هنا فقد كبر دور الوطن بكامله ، فليعش الوطن الذي يكبر بابنائه ويكبر به ابناؤه .

سرنا اشواطا كبيرة على طريق الديمقراطية الشعبية ، فقامت المؤسسات الدستورية ومارست سلطاتها بكفاءة ، وقامت الجبهة الوطنية التقدمية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ، ثمرة هامة لجهود هامة من اجل الوحدة الوطنية ، وركيزة من اهم ركائزها ، الوحدة الوطنية سلاحنا الامضى في مواجهة كل التحديات والمؤامرات . وما دامت الجبهة الداخلية منيعة ، والوحدة الوطنية متينة ، فلا عدو ولا متآمر قادر على النيل من هذا البلد او حرفه عن اهدافه وتثبيط كفاحه الوطني والقومي .

وكما قلت سابقا ، فان الجبهة الوطنية التقدمية كانت وستبقى مكانا لجميع الوطنيين والتقدميين ، ولكل المؤمنين باهدافها ولكل الطاقات المصممة على بناء مجتمع التقدم والاشتراكية .

وبتطبيق نظام الادارة المحلية عمقنا الممارسة الديمقراطية ، وعمقنا دور الجماهير في ممارسة مسؤولية توجيه شؤون الحكم وتامين رقابة الشعب الدائمة على حسن التنفيذ .

المنظمات الشعبية
تؤدي دورها الكامل

واخذت الرقابة الشعبية والمشاركة في المسؤولية مداهما في التنظيم الشعبي ، فتعززت منظمات شعبية كانت فاعلة على الساحة الوطنية ، وقامت منظمات شعبية لم تكن موجودة قبل الثورة . ان هذه المنظمات الشعبية جميعا تؤدي الآن دورها الكامل في الحياة الوطنية بمختلف ابعادها وتنمي باستمرار نشاطها المثمر البناء ، وهي تحظى بالرعاية والدعم من قيادة الحزب والدولة .

ان الاتحاد العام لنقابات العمال ، والاتحاد العام للفلاحين ، والاتحاد الوطني لطلبة سورية ، واتحاد شبيبة الثورة ، والاتحاد النسائي العام ، والاتحاد الرياضي العام ، ومنظمة طلائع البعث ، والاتحاد العام للحرفيين ، واتحاد الكتاب العرب ، واتحاد الصحفيين ونقابة الفنانين، وكذلك النقابات المهنية للاطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وغيرها ، هي الآن منظمات نشطة فاعلة في المجتمع ، وفي كل الساحات الوطنية والقومية .

وحين نتحدث عن المنظمات الشعبية ونتحدث عن تعاظم ادوار جميع قطاعات الشعب ، فلا بد من أن نذكر ان الطبقة العاملة ممثلة بتنظيمها النقابي صارت لها الكلمة الحاسمة في كل ما يتعلق بالعمل والعمال ، وان الفلاحين ممثلين بتنظيمهم الشعبي ، الاتحاد العام للفلاحين ، صارت لهم الكلمة الحاسمة في كل ما يتعلق بالارض ، وان للمنظمات الشعبية والنقابات المهنية ممثليها في مجلس الشعب . ومجالس الادارة المحلية ، وتمارس عن طريقهم دورها في التشريع والرقابة والادارة .

والقيت الحركـة التعاونية كل الدعم والتشـجيع ، فانتشـرت التعاونيات في سائر انحاء القطر ، مؤدية بنشاطها قسطا هاما في توفير متطلبات المواطنين وحاجاتهم الضرورية .

تقدم كبير في كل المجالات

وفي مجال الخدمات ، كان الجهد كبيرا في توفيرها وتعميمها على كل انحاء القطر ، ومع انه لا يزال امامنا الكثير مما يجب عمله ، فان ما تحقق حتى الآن قد غيّر ظروف الحياة تغييرا كبيرا نحو الافضل ، سواء في المدينة او في المناطق الريفية ، والتي نعمت اوسع الاجزاء منها لاول مرة بالكهرباء ومياه الشرب والخدمات الاخرى .

وفي مجال الثقافة والتربية ، كان التقدم عظيما حقا ، بما وسعنا من جامعات بمستلزماتها ، وشدنا من جامعات ومعاهد جديدة بمستلزماتها، وبنينا من مدارس ومنشآت رياضية ومؤسسات ثقافية بمستلزماتها .

وفي مجال الصحة العامة ، انشئت مستشفيات ومستوصفات كثيرة في مختلف انحاء القطر ، وجهزت بالمعدات ، وكان هنالك نشاط كبير في مضمار الرعاية الصحية ، ورعاية الطفولة ، من ضمنها حملات التلقيح الوطني ، التي وفرت المناعة لاطفالنا ، رجال المستقبل ، ضد الخطر من الامراض والاوبئة .

وتحقق في ميدان المواصلات توسع ضخم فيمسافات الطرق والسكك الحديدية ، وتوفير وسائط النقل من قطارات وحافلات ، وزيـادة وتحسين المطارات والمرافىء وتوسيعها وزيادة وسائط النقل الجوي والبحري . وتحقيق توسع مماثل في مضمار الاتصالات ، شمل شبكات الهاتف والبرق وتحسين خدمات البريد .

واما الميدان الاقتصادي بفروعه من زراعة وصناعة وتجارة وخدمات مصرفية ، فاننا نستطيع ان نقول باطمئنان ، ورغم كل ما تعرضنا له ، نستطيع ان نقول باطمئنان : ان لدينا قاعدة اقتصادية متينة ، وهي قاعدة قادرة على الصمود والنمو والتوسع بقطاعاتها الثلاثة : العام والخاص والمشترك .

فالزراعة اتسعت رقعتها ، واقمنا عشرات السدود ، منها الكبير ، ومنها المتوسط ، ومنها ما دون المتوسط ، منها ما انجز تماما ، ومنها ما هو قيد الانجاز ، كماحققنا الكثير في مجال حاجات الزراعة من اسمدة وآليات زراعية ، كذلك فقد نمت الصناعة نموا كبيرا بانشاء العديد من المصانع الجديدة .

ان وضعنا الاقتصادي متين ، رغم الصعوبات التي تواجهنا والتي سبق ان تحدثت عنها وشرحت عواملها الموضوعية والذاتية ، ووسائل التغلب عليها . وقد بدانا نتحرك على طريق معافاة الوضع الاقتصادي وتحجيم المصاعب ، وتدور عجلة العمل الآن بشكل افضل ، وساعدنا في ذلك ، كما اشرت ، ان القاعدة الاقتصادية متينة ، وعلينا ان نبذل جهودا مناسبة ونضع الخطط والبرامج المناسبة ، وقبل كل ذلك ، يجب ان يستمر عاليا احساسنا بالمسؤولية الوطنية ، وان نتصرف بداب وحرص وغيرة انطلاقا من حقيقة : ان كل شيء في هذا الوطن ، هو ملك لكل فرد منا ، اينما كان موقع هذا الفرد ، ومهما يكن عمله ومهنته ، هكذا يكون حب الوطن ، ومن يحب وطنه يحبه بكل ما فيه ومن فيه .

ان قلة الامطار حملت بلادنا اعباء كبيرة خلال الاعوام الماضية ، ونحن الآن مستبشرون بموسم جيد هذا العام ، ونرجو الله ان تتبعه مواسم مماثلة في الاعوام القادمة ، وان تكون قد انتهت الدورة المناخية الجافة التي تميزت بقلة الامطار خلال السنوات الماضية . كما ان جهودنا في ميدان استكشاف واستثمار الثروات الطبيعية تسير بشكل جيد وبدت بعض التباشير التي تؤكد تفاؤلنا الذي اشرت اليه سابقا ، وقد ظهرت لدينا اكتشافات جيدة من النفط والغاز .

أداء الواجب

ان اداء الواجب على الوجه الاكمل ، من قبل الجميع في مختلف مواقعهم ، هو السبيل لكي تؤتي جهودنا اكلها على النحو الامثل ، وانني في هذا المجال اعود فاشدد على حس المسؤولية وروح المبادرة ،ومكافحة الهدر ، وتطبيق مبدا الثواب والعقاب ، الثواب للمبدع والعقاب للمقصر والمخطىء ، ويجب أن يتقن كل مواطن عمله ، وان يكون قدوة في عمله ، وبذلك يثمر اكثر فاكثر التحرك الـذي بداناه في اتجـاه التغلب على المصاعب التي تعترض سبيل تقدمنا .

لقد رفعنا شعار الاعتماد على الذات والابداع الوطني ، وهو اضافة الى كونه شعارا صحيحا في كل وقت وكل مرحلة ، فانه ضروري بشكل خاص في ظروف مرحلتنا الراهنة التي نواجه فيها عدوا شرسا تدعمه الامكانات الضخمة للولايات المتحدة الامريكية ، ونواجه ايضا محاولات الضغط الاقتصادي على بلادنا .

لقد كان مؤتمر « الابداع الوطني والاعتماد على الذات » ، الذي انعقد بدعوة من الاتحاد العام لنقابات العمال ، مؤتمرا هاما في المسار الذي اشرت اليه .

وكان في الاعداد لهذا المؤتمر وفي الدعوة اليه ، ربط واضح بينه وبين المؤتمر الحادي والعشرين للاتحاد العام لنقابات العمال ، استنادا الى ما طرح في المؤتمر الحادي والعشرين من مسائل وافكار وثيقة اللحمة بالوضع الاقتصادي والاجتماعي بخاصة ، والوضع العام في قطرنا بعامة.

نستهلك أكثر مما ننتج

وقد تحدثت الى المؤتمر الحادي والعشرين فبينت ما يجب عمله من اجل حماية اقتصادنا وتطويره وتحسين ظروف معيشة شعبنا في اطار رؤية بعيدة المدى . واوضحت ان لدينا مصاعب اقتصادية ، ولكن

ليست لدينا ازمة اقتصادية تستعصي على الحل ، وبينت ايضا اسباب وعوامل المصاعب الاقتصادية التي نواجهها ، فقلت : انها تنبثق من وضع يمكن تلخيصه في اننا نستهلك اكثر مما ننتج رغم وجود القاعدة الانتاجية الواسعة ، فلا بد من تصحيح العلاقات بين طرفي الاقتصاد هذين : الانتاج والاستهلاك : لتصبح المعادلة متساوية كمرحلة اولى نحو ترجيح طرف الانتاج .

وابديت في تلك المناسبة خمس ملاحظات ، اكدت في اولاها : ضرورة البحث ، في مجال زيادة الانتاج ، عن المواد الاولية التي يمكن ان نوجدها في البلاد ، واستخدامها جزءا او كلا بديلا من المواد الاولية التي نشتريها من الخارج .

واكدت في الثانية : وجوب تصعيد الجهود والعمل على استخراج وزيادة استخراج الثروات المعدنية والوطنية ، وخاصة تلك التي اكدت الدراسات والتجارب والحفريات وجودها .

واكدت في الملاحظة الثالثة : ضرورة ان تنمو ، – وتنمى – في خدمة المجتمع المبادرات الفردية والجماعية في كل مجال ، وضرورة توسيع التجارب والمبادرات وتعميقها وتبادل الخبرة بين المؤسسات لتحقيق افضل النتائج .

ودعوت في الملاحظة الرابعة : الى العمل على اخذ الطاقة القصوى من الآلة في جميع المؤسسات والمعامل والمزارع .

واكدت في الملاحظة الخامسة ضرورة استثمار الوقت ، وهو من اخطر عناصر الهدر ، وضرورة التغلب على مشكلة الوقت الضائع .

وقلت في مجال الاستهلاك العام : انه يجب خفض الانفاق العام ، والحد من الاستهلاك الخاص ، هذا الامر الذي يحتاج الى تعاون المواطنين جميعا .

انني اذ اشير الى كلامي في المؤتمر الحادي والعشرين للاتحاد العام لنقابات العمال ، اقدر للاتحاد العام المبادرة السريعة للاستجابة الى ما دعوت اليه ، والاهتمام بايجاد الصيغة العلمية والعملية لتحقيق ذلك ، واوجه كبير الشكر والثناء لمن كانت لهم مبادرات في خدمة الشعب والوطن في اي مجال من المجالات .

واود ان اشير الى ان الوضع الآن من حيث روح المبادرة وديناميكية العمل ، هو افضل منه في المراحل السابقة ، ومع ذلك فما بلغناه لا يمثل طموحنا ، بل هو خطوة او بضع خطوات على طريق طموحنا ، مع العلم ان ما انجزناه نحو هذا الطموح قطع اول الطريق .

ويبقى في مقدمة انجازاتنا في عهد ثورة آذار ، الانجاز الاهم الذي حققته قواتنا المسلحة الباسلة ، في حرب تشرين المجيدة ، وحرب الاستنزاف المتحركة في الجولان ، وجبل الشيخ ، ذلك الانجاز الذي سيظل تأثيره مستمرا مهما انقضى من الزمن ، ورغم كل اعمال الخيانة والغدر والتآمر على ذلك العمل التحريري العظيم ، الذي قامت به قواتنا المسلحة ببطولة فذة وبالاداء المشرف .

حرب تشرين

واذا كانت حرب تشرين قد ادت الى تحرير جزء من الارض ، وهذا هام ، ولكن الاعمق معنى هو انها كانت منعطفا في الحياة العربية والتعامل العربي مع الغزو الاسرائيلي ، اذ كانت المرة الاولى في تاريخ صراعنا مع هذا الغزو التي ينتقل فيها العرب ، من الدفاع الى الهجوم ، ويمسكون فيها زمام المبادرة ، كما انها المرة الاولى التي يظهر فيها المستوى المتميز للجندي العربي ، تنظيما ، وتدريبا ، وبسالة ، ولم تستطع دعاية الاوساط الصهيونية وحلفائها ان تحجب عن العالم هذه الحقيقة . ومن هنا ، من التقاط زمام المبادرة ، ومن بطولة الجندي العربي المتدرب جيدا كانت النتيجة الحاسمة في صراعنا النهائي ضد الغزو ، وهي زوال عقدة

الخوف من القوة الاسرائيلية ، وانهيار ركام الاوهام التي تكدست في نفس المقاتل العربي والمواطن العربي عموما ، منذ بدء الصراع العربي ـ الصهيوني حتى حرب تشرين . وقد انعكست نتائج حرب تشرين هذه على المقاتل العربي والمواطن العربي ثقة بالنفس واستعدادا للتضحية واعتزازا بها . وانعكست على الامة العربية مكانة ووزنا لم تعرفهما منذ قرون عديدة . وما الذي نشاهده منذ تشرين الحرب . وحتى اليوم ، من صمود وتحد شعبي وعسكري للاحتلال الا نتيجة واستمرار لروح تشرين .

قواتنا قاتلت دفاعاً عن لبنان

وهنا تبرز امامنا المعركة المشرفة التي خاضتها قواتنا المسلحة ضد الغزو الاسرائيلي في لبنان . فقد قاتلت دفاعا عن لبنان . وقدمت الافا من الشهداء . كما تقاتل دفاعا عن سورية ، وقاتلت دفاعا عن المواطنين العرب اللبنانيين والفلسطينيين . كما تقاتل دفاعا عن المواطنين العرب السوريين . هذا ما فعلته القوات السورية في بيروت ، وفي جبل لبنان . وفي شرق لبنان . في كل مكان وجد فيه العدو الاسرائيلي او تقدم اليه . مارست قواتنا معركة الشرف القومية هذه ببطولة وكفاءة ، ورغم تفوق العدو على الارض اللبنانية من حيث حجم قواته البرية . ورغم السيطرة الجوية الاسرائيلية ، واستخدام مختلف انواع الاسلحة والذخائر الحديثة . فقد استمرت قواتنا تخوض المعركة بقوة وصلابة . بروح معنوية وقتالية عالية ، وعندما كنت استقبل بعض قادة الجيش بعد عودتهم من زيارة مواقع القوات خلال المعركة كانوا يحدثونني بزهو عن معنويات المقاتلين السوريين في مواقع القتال . وعن الشجاعة وحسن الاداء اللذين يتسم بهما عسكريونا في مواجهة العدو المتفوق عددا وعدة .

كما اننا افشلنا جميع محاولات منعنا من التصدي للغزو الاسرائيلي ارض لبنان . ورفضنا جميع محاولات تحييدنا او اخراجنا من المعركة . ورفضنا كل العروض لتحقيق ذلك . ومنها ما كان يبدو مكسبا سوريا

اقطريا ، فلم نقبله الا ان يكون مكسبا سوريا ــ لبنانيا ــ فلسطينيا ، وبقينا هكذا حتى آخر لحظة ، وفضلنا ان يختلط الدم السوري ــ اللبناني ــ الفلسطيني في مزيج واحد ، وفي معركة قومية واحدة ، وتحمل شعب سورية في سبيل ذلك الكثير من الدم والمال .

واستمرت سورية مع المقاومة اللبنانية رغم تدفق القوات الاطلسية بزخمها الذي لا اظن اننا نسيناه ، ولا اظن انه امر تنساه ذاكرتنا الشعبية .

باسمكم احيي قواتنا المسلحة الباسلة ، في البر والجو والبحر احيي ضباطها وصف ضباطها ، وجنودها الشجعان ، المدافعين عن ارض الوطن وشرف الامة وكرامتها ، المستعدين دوما لتلبية النداء لاي واجب قومي، المتاهبين باستمرار لبذل ارواحهم دفاعا عن قضايا الامة .

انهم سياج الوطن وسوره المنيع ، وهم الذين امنوا بشعار الشهادة او النصر ، والمتراجع امام العدو خائن يجب ان يقتل .

سورية مع المقاومة اللبنانية

ظلت سورية شعبا وجيشا مع المقاومة اللبنانية باعمق ما تعنيه المعية في كل لحظة ، وحتى هذه اللحظة ، وكانت هذه المقاومة ومازالت جديرة بكل عون وكل تضحية ، معها والى جانبها ، فقد كانت صادقة مع نفسها ومع قضيتها ، ولم تتوقف عن مقارعة العدو بكل قوة ، ولم تتردد في التضحية المستمرة ، وها هي الجماهير العربية والعالم كله يسمع انباء الهجمات المتتابعة التي تشنها ضد العدو وعملائه . فتحية للمقاومة الوطنية اللبنانية باتجاهاتها الاسلامية والوطنية ، وثقوا ايها المقاومون في لبنان ، ان سورية ستبقى كما كانت لا تتاخر عن دعم ولا تبخل عليكم بتضحية .

وكما دعمنـا لبنـان في مقاومتـه ضد العدو . دعمناه في مشكلتـه الداخلية ، فقـد اوقفنـا الحرب الاهلية وحققنا مساحـة واسعة من الامن ، وبقيت عملية السلام الداخلي معلقة لانهـا تحتـاج الـى ارادة الاطراف اللبنانية وجهودهم والوصول الـى القواسم المشتركـة التـي تحقق تطلعاتهم ، ومـن هنا فقد اكدت سورية دائمـا على الوفاق الوطني اللبناني وسعت جادة لتحقيق ذلك ، وتعاملت بصدق مـع الجميع ، ولا مبرر للشك في ذلك لان احدا لا يجهل ان سوريـة تتحمـل اعباء وتضحيات . وكم اتمنى ان يتجه الجميع نحو الحل الوفاقي عبر الطريق الصحيح ، والا فالامور في مكانها او الى الوراء ، ولن تسير ابدا الى الامام .

اننا في سورية اكثر من يشعر بالسعادة عندما تجد المشكلة اللبنانية حلها الحاسم لان آلام اللبنانيين هي آلامنا ، فهم اهل لنا واخوة .

ايها الاخوة المواطنون ،

ايها الرفاق .

اننا ونحن نحيي ذكرى الثورة ، نتوجه بعقولنا وقلوبنا ، باحاسيسنا ومشاعرنا ، الى الأهل والأشقاء الذين يقاومون الاحتلال في الاراضـي العربية المحتلة ، في الجولان ، وعلى الارض الفلسطينية وفي الجنـوب اللبناني .

ان اهلنا في الجولان يمارسون صمودهم يقاومون الاحتلال بالصوت والحجارة وامور أخرى .

واشقاؤنا في الارض الفلسطينية يمارسـون صمودهـم ويقاومـون الاحتلال بالصوت والحجارة وامور اخرى .

واشقاؤنا العرب اللبنانيون يمارسون صمودهم ويقاومون الاحتلال في جنوب لبنان بالدم والنار .

انهم جميعا يمارسون رفض الاحتلال بوسائل مختلفة ويؤكدون تمسكهم بالارض وحريتها ، ويؤكدون ان الشعوب ترفض الاستسلام وتزدري دعاته .

صمود الجولان

ان اخوانكم وابناءكم في الجولان ما انفكوا يواجهون العدو منذ الاحتلال ، وخاصة بعد محاولته ان يفرض عليهم الجنسية الصهيونية ، فوقفوا بعنفوان في وجه محاولته ، وظلوا صامدين امام الضغوط الاسرائيلية فجسدوا بذلك ارادة شعبهم وامتهم ، وفشل العدو ما زال وسيظل في فشل .

ان اسرائيل تريد من السوريين في الجولان ان ينسلخوا من شعبهم ومن تاريخهم فيعيشوا بدون جذور شعبية وبدون تاريخ . ان العنصرية الصهيونية وما تحمله من كره للشعوب عموما ، وللامة العربية خصوصا ، هي التي تدفع الاسرائيليين الى ارتكاب كل جريمة تجسيدا لحقدهم الذي طالما تجلت آثاره في الكثير من بلدان العالم .

وكما المرء لا يستطيع ان ينسلخ من جلده ، الشعوب لا تستطيع ان تنسلخ من أصولها وتاريخها . ومن هذه الحقيقة ينطلق ابناؤكم واخوانكم في الجولان . فاطمئنوا ايها الابناء والاخوة السوريون في الجولان ، ان العدو يدرك اننا لسنا في سبات عميق . اليوم نحن هنا . واليوم الآتي لنا بثقة وتأكيد .

صمود الشعب العربي الفلسطيني

اما اخوتكم في فلسطين العربية فقد اعادوا بنشاطهم الثوري الى القضية الفلسطينية نقاءها وبهاءها ، واكدوا للعالم ان هذا الشعب الذي صورته الدعاية الصهيونية شعبا مستكينا ، انما هو شعب عربي ابي

شجاع يابى الضيم ويرفض الخضوع والاستسلام ، ولا يرضى عن هويته الكاملة وحقوقه الكاملة بديلا .

لقد أكد شعبنا العربي الفلسطيني ان الصهاينة ضالون مضللون ، ضالون بذاتهم ، ومضللون غيرهم عندما يوهموا واوهموا اخرين مـن حماتهم ان البطش والقهر والعدوان تستطيع اخضاع الشعوب واغتصاب الارض الى الأبد . وهاهم ابطال فلسطين من الشباب والاحداث يبرهنون ان الحق اقوى من البطش . وحب الارض اقوى من البطش ، وارادة الانسان اقوى من البطش .

لقد فرضت انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني نفسها على الساحة الدولية ، وانتزعت اعترافا من الجميع بان شعب فلسطين شعب حي مصمم على استعادة حقوقه كاملة ، الامر الذي يشكل هزيمة للدعاية الصهيونية ولكثير من المقولات الصهيونية الزائفة .

ان القمع الوحشي لا يؤكد واقعا يقوم على باطل ، وتكسير العظـام لا يهدم معنويات الشعب المصمم على نيل حقوقه ، فالحق هو الاقوى ، والحق الذي يدافع عنه اصحابه هو المنتصر .

ان الاسرائيليين ينسون او يتناسون دروس التاريخ ، لانهم لايريدون ان يدركوا ان اسرائيل ليست قادرة على ان تحافظ على عدوانيتها الى الابد . ان دروس التاريخ تؤكد ان ما من قوة عدوانية استطاعت ان تستمر الى مالا نهاية . وهذا ما اكدته ظروف الاستعمار التي تعرضت لها الاقطار العربية وبلدان كثيرة في العالم .

ما من استعمار بدأ في مكان من العالم . الا وكان يخطط لكي يستمر قدر ما يستطيع ، ولكنه كان دائما يواجه مقاومة الشعوب وثوراتهـا ويخرج مذموما . وكثير من المستعمرين ادعوا ان الاراضي التي استعمروها هي ارضهم . والامثلة على ذلك موجودة في الوطن العربي وغيره ، ومـع ذلك لم تفلح القوة المسلحة في تثبيت ادعائهم . وانتهى الاستعمار وهزم المستعمرون وعادت الارض الى اصحابها .

قد يخطر لاصحاب الانفاس القصيرة الذين دخل الياس نفوسهم ، وهم موجودون على مستويات عديدة . ان خير الطرق واسلمها هـي

اقصرها . واقصر الطرق هي ان ننال بعض حقنا ونتنازل عن بعضه الآخر ، وهذا ما نسميه نحن استسلاما . ويسوغون موقفهم قائلين ان ليس ثمة طريق آخر لان الطرق الاخرى ــ ان وجدت ــ فهي مسدودة .

نحن نرى ان الطرق الاخرى ، بل الطريق الآخر موجود ، وليس مسدودا ، ولكننا نحتاج الى ارادة السير عليه ، انه طريق الجلد والصبر والنفس الطويل والنضال العنيد والتضحيات الكبيرة .

نضال الشعوب لا يقاس بالسنوات

ان مسائل الاستعمار ونضال الشعوب ضد الاستعمار ، لا تقاس بالايام او الشهور او السنوات ، بل تقاس بعمق الارادة الشعبية وبعمق تصميم الجماهير . ولا حاجة بنا ان نذهب بعيدا ونفتش في صفحات تاريخ الشعوب الاخرى ، بحثا عن براهين على ذلك ، مادامت صفحات تاريخنا العربي تضم عددا كبيرا من الامثلة التي سجلتها اسفار التاريخ وشغلت المؤرخين مئات السنين .

ومع ان نضالنا في سورية ضد الاستعمار الفرنسي ، ونضال الجزائر ونضال ليبيا ، ونضال اليمن ونضال الاقطار العربية الاخرى في العصر الحديث هي في حد ذاتها براهين على ما اقول ، الا ان الابرز والاعمق اثرا في مسيرة التاريخ العربي والعالمي هو الغزو الصليبي الاوروبي الاستعماري . فعندما صمدنا في ارضنا ونحن نواجه هذا الغزو وقاومنا هذا الغزو هزمناه وحررنا الارض ، وخلال المدة الطويلة التي استغرقتها الحروب الصليبية ، وعندما لم نستطع تحرير ارضنا آنذاك في سنة او عشر سنوات او عشرين او ثلاثين ، صمدنا وناضلنا حتى حققنا هدف التحرير بعد مرور مئتي عام على بدء الغزو ، فانهار الغزو الاوروبي مع انه كان قد احتل مناطق واسعة من الارض العربية ، كان قد احتل كل الساحل السوري ، ما يسمى الآن الساحل السوري والساحل اللبناني، وفلسطين وشرق الاردن وجزءا من داخل سورية وشمال سورية ، واسس

القواعد المادية والبشرية لاقامة دائمة في هذه المناطق من منطلق ان الارض ارضه وحق العيش الابدي فيها حقه .

ايها الاخوة الفلسطينيون :

بوركت تضحياتكم ، بورك شهداؤكم ، بورك جرحاكم ، الطريق صعب ولكن ليس امامكم فقط ، بل امام الغزاة وامام المتحالفين مع الغزاة والمنهزمين كذلك ، فيجب ان يثق الغزاة وان يدرك العالم ان انتفاضتكم هي عملية صمود مستمر وليست امرا عابرا ، وقد بدا العالم هذا الادراك .

ايها الاخوة في الارض المحتلة :

بالامس لم يخرج الاستعمار الفرنسي من سورية الا بالتضحية والشهادة ، فلم يجد هذا الاستعمار فرصة الاستقرار طوال خمسة وعشرين عاما ، وكانت فرنسا دولة عظمى ، واذا قيل ان فرنسا لم تدع ان سورية جزء من اراضيها . فماذا نقول عن الجزائر ، لقد تصرف الاستعمار الفرنسي في الجزائر طوال اكثر من مئة وثلاثين عاما على اساس ان الجزائر ارض فرنسية وجزء من فرنسا ، وكان الجيش الفرنسي موجودا على ارض الجزائر بمختلف اسلحته البرية والجوية والبحرية ، وكان عدد المواطنين الفرنسيين المقيمين في الجزائر على قاعدة انها بلادهم في وقت من الاوقات . اكثر من عدد الواردين الاسرائيليين الى فلسطين . ومع ذلك لم تستطع هذه البنية المادية والفكرية ان تصمد وتثبت صوابها امام صمود ونضال وتضحيات الشعب الجزائري، لان البنية الاستعمارية زائفة باطلة . ولان الشعب الجزائري انطلاقا من اصالته وعمق جذوره في الارض الجزائرية وحقه في استرجاع ارضه وامتلاك حريته صمم على هدم هذه البنية الاستعمارية ليعيش حرا على ارض وطنية حرة ، فعاد الفرنسيون الى فرنسا الحقيقية ، وبقي الجزائريون على ارض الجزائر الحقيقية .

والاستعمار الايطالي في ليبيا زرع مساحات واسعة من الارض الليبية بالمستوطنين الايطاليين . ولم يزرعهم في ليبيا ليخرج منها . ولكنه خرج . واستعاد الشعب الليبي حريته وعادت ليبيا حرة مستقلة .

وفي اليمن كانت بريطانيا تعتبر عدن الموقع البريطاني الدائم ، وطوال اكثر من مئة وخمسة وعشرين عاما لم تكن بريطانيا تقبل مناقشة من احد يعكس ذلك . ولكن بريطانيا ارغمت على الخروج من عدن ومن كل الارض اليمنية التي كانت تحتلها واستعاد شعب اليمن ارضه وحريته فوق ارضه .

ذكرت هذه الامثلة من تاريخنا العربي لأجيب . ولأساعد من يريد ان يجيب . المشككين او المستسلمين في مقولاتهم المستمرة التي يرددونها في مكان او آخر بين وقت وآخر . من حيث صعوبة مواجهة اسرائيل وصعوبة مواجهة الغزو الاسرائيلي ويؤكدون انه يختلف عن اي استعمار آخر ولم يسبق ان تعرضت الامة او بلدان العالم الاخرى ، لمثل هـذا النوع من الاستعمار وامكن اخراجه او ازالته .

وهذه هي شواهد التاريخ حية امامنا ، منها القريب ومنها البعيد ، تصرخ امامنا وتنادينا قائلة : انها براهين ساطعة فاقتدوا بها .

وكما قلت فان نضالات الشعوب ومسائل الاستعمار لا تقاس ابدا بالايام والشهور والسنوات ، تقاس بارادة الشعوب ، بارادة الجماهير بتصميمهم ، بعمق تصميمهم على مجابهة الاستعمار وطرده من الارض التي احتلها .

الفيتناميون طردوا الدولة العظمى وقواتها العظمى وهم شعب لا يملك من الامكانات ما تملكه الامة العربية ، ناضلوا سنين طويلة ومن حقهم ان يتغنوا بنضالهم . وحتى نحن في هذا القطر تغنينا بنضالهم ، لان قضايا النضال لا يمكن احتكارها ضمن مكان محدد . انها كشعاع الشمس تنتقل من مكان الى مكان ، الى كل مكان في الدنيا . ويشعر باشعة النضال هذه

يشكل خاص المظلومون ، المقهورون ، المستعمرون، الذين احتلت اراضيهم قبل ان يشعر الآخرون .

شعبنا تصدى للغزاة الفرنسيين

دخلت فرنسا الى سورية وكانت دولة عظمى متعاونة مع بريطانيا العظمى مقتسمة معها غنائم الحرب . وسورية ، والوطن العربي ، اعتبرت في نظرهما من غنائم الحرب آنذاك .

ورغم ظروف التخلف آنذاك ـ يمكننا ان نتصور تلك الظروف اذا عدنا بذاكرتنا الى الخلف حوالي سبعين عاما ـ رغم ظروف التخلف المعقدة ، ورغم الفقر ومساحة الجهل الواسعة ، وعدم توفر الا القليل من الامكانات الضرورية لمواجهة العدو وخاصة عندما يكون هـذا العدو قوة عظمى كما قلت ، رغم كل ذلك تصدى شعبنا للغزاة الفرنسيين آنذاك في كل منطقة من مناطق سورية ، بكل اداة موجودة على الارض السورية يمكن ان تساعده في هذا التصدي .

تصدى بالحجر ايضا ، وتصدى بالعصا وتصدى بالسكين وتصدى بما قد توفر لديه آنذاك من البندقية .

الذين ضحوا ، ضحوا دون ان يكون امامهم وفي اذهانهم هدف وهم يضحون الا كرامة الوطن الذي يعيشون فيه ، وكان شعارهم ان هـذا المستعمر الآتي ، القادم يجب ان يخرج مطرودا مدحورا مذموما مـن بلادنـا .

لجا الاستعمار آنذاك لاستغلال كل عوامل التخلف والجهل وعرض على الناس العروض المغرية ولكنه لم يجد الاستجابة وامتدت روح الثورة وتنامت وتعاظمت ولما لم يجد الاستعمار الفرنسي ربحا من اقامته في سورية خرج الى فرنسا وبقينا نحن في سورية .

الشعب هو الكبرياء

في كل بلد ، وفي ظروف الاستعمار يمكن ان يوجد المترددون ويمكن ان يوجد المشككون ويمكن ان يوجد احيانا العملاء والمتواطئون مع العدو ، وهم ان كثروا ، ومهما كثروا ، يظل عددهم محدودا في كل شعب ، لان الشعب هو الكبرياء ، هو الكرامة ، هو النبل ، هو الوطنية هو الجماهير الواسعة ، والعملاء هم الشواذ ، هم القلة القليلة ، ولهذا دائما عندما تنتفض الجماهير في وجه الاستعمار يبحثون عن الملجا يبحثون عن المهرب ويبدون ضعيفي التاثير فاقدي القدرة على اي فعل وعلى اي خدمة يمكن ان يقدموها لاسيادهم المستعمرين . اذ كان المستعمرون يعلقون عليهم آمالا كبيرة . والقاعدة هي ان يعلق المستعمرون آمالا كبيرة على عملائهم في ظروف استعمارهم لأي بلد .

النضال كان روحا عامة ولم يكن لدى جماهيرنا في ذلك الوقت تلك القدرة الواسعة على التنظيم الجيد المحكم ، ولكن الروح العامة ، الروح النضالية العامة جعلت الناس يلتقون تلقائيا ونضالاتهم تلتقي تلقائيا وتصب في مجرى واحد . لعل بعض الموجودين في هذه القاعة عاشوا بعض سنوات تلك المرحلة . وانا كنت طالبا في ظل الاستعمار الفرنسي لسورية ولم يكن لدينا نحن الطلاب في ذلك الوقت من وسائل الصراع ضد العدو ، الا الايمان بوطننا ، الا الايمان بكرامتنا ، الا الثقة بان هذا العدو المستعمر غريب غاز يجب ان يخرج . لكن لم نعدم وسائل النضال .

مرت سنوات كان نصف ايامنا الدراسية فيها مظاهرات في الشوارع ، وفي اكثر الاحيان كانت مظاهراتنا تمر امام الثكنات العسكرية الفرنسية . وفجاة كنا نواجه بالرصاص الغزير ، وكنا نتفرق في هذا الشارع او ذاك ونقف خلف الجدران ولكن لم نكن نهرب ابدا ، وكنا ننتظر ان تتوقف النيران . وما ان يتوقف العدو عن اطلاق النار علينا حتى نتجمع بسرعة ونتابع مسيرتنا وصراخنا واحتجاجنا . وفي اكثر مظاهراتنا كنا نقف امام هذه الثكنات ، نشتم ونصرخ ونرمي بما نحمل بايدينا ، كانت تطلق

النار علينا فنبحث عن الملجا ثم نعود مرة اخرى لممارسة الفعل الـذي بدأناه .

لم نكن نرهب نيران الفرنسيين . ابدا هم الذين كانوا يخافون مـن نيرانهم لانهم بعد اطلاق النار كانت تمر ايام وايام طويلة دون ان يتجرا اي فرنسي او عسكري متطوع في الجيش الفرنسي ـ اذ كما تعرفون كانوا ياتون بعساكر من كل مستعمراتهم ـ دون ان يتجرا واحد منهم ان يخرج من ثكنته ليتجول في الشوارع ، ليزور احدا ، واذا صدف ونزل بعضهم الى الشارع فقلما يعود سالما ان لم يمت .

عندما كان يصدف ان ينزل الجندي او الجنود الفرنسيون الـى الشارع اينما مروا كانوا يتعرضون للضرب من الاطفال ، من الشباب ، من النساء ، من الاسطحة ، من الازقة ، بالحجر ، بالسكاكين ، باي شيء. طبعا شعبنا كان يدفع الثمن . وكان الناس يتعرضون للعقاب ، يقتلون، يسجنون ، ولكن الذي يعاقب يظل فردا او افرادا ، والذي يسجن يظل فردا او افرادا والذي يقتل يظل فردا او افرادا ، اما الشعب ، المساحة الواسعة ، الجماهير ، فتظل موجودة على الارض وتتابع نضالاتها . وحتى بعد ان نقلت بعض السلطة لتعطى طابعا وطنيا اي بعد ان تسلم بعض السوريين بعض المسؤوليات الادارية ، اذكر اننا كنا نتظاهر ونذهب لنحتج ، فياتي هذا المسؤول في قمة المحافظة ، كمثال ، ويرجونا ان نعود ، قائلا ان الامور تبحث في العاصمة وان الجلاء قريب . اذكر انه كان لدينا بعض الجمل نرددها في كثير من مثل هذه الحالات حتى عندما كنا نعود من المدرسة كنا نصرخ بشكل جماعي : « سنعود ، سنعود ولكن في عودتنا دم ونار » .

شعبنا بالمرصاد

واذا كان الاسرائيليون يقولون ان فلسطين لهم ، فانهم لا يقولون هذا فقط ، انهم يقولون ايضا ان الارض لهم من النيل الى الفرات ، وان ربهم اعطاهم هذه الارض ضمن هذه الحدود وهي امانة في اعناقهم ويجب

ان يحافظوا عليها ، وتاسيسا على ذلك فهم يشعرون بعقدة الذنب وبالاثم الكبير طالما انهم لم يحرروا كل هذه الارض من النيل الى الفرات. ومادامو الآن في فلسطين ، اليس من الافضل ان نصمد ونعمق الصمود عند هذا الموقع المتقدم من ان نتخاذل ونتخاذل ونتراجع الى ان يصبح الاسرائيليون على شواطىء النيل والفرات ؟ وهناك لست ادري ماذا يمكن ان يقول المشككون والمترددون والمتخاذلون ، ولكنهم لن يصلوا ابدا الى هناك ، ولن يبقوا ابدا في فلسطين . لان شعبنا الفلسطيني البطل وجماهيرنا العربية لهم بالمرصاد في كل مكان ، وفي فلسطين اولا . اذا كان الصهيوني يدعي ملكية فلسطين في اطار ما يدعيه ، الم تكن قوى استعمارية أخرى تدعي ملكية اراضي بلدان اخرى استعمرتها كما قلت ، وقد ذكرت الجزائر ؟!.

موضوع الجزائر حديث ، عاشه اكثر ابناء شعبنا ، عاش فترته . فرنسا كانت تعتبر الجزائر ارضا فرنسية ، وكان عدد الفرنسيين المستوطنين في الجزائر كبيرا ، والوف كثيرة بل مئات الالوف من هؤلاء الفرنسيين هم فعلا من مواليد الجزائر ، ولدوا على الارض الجزائرية، وبنوا وعمروا في الجزائر على اساس أنها أرضهم ، والقوات الفرنسية كانت موجودة في البر والبحر والجو في الجزائر كما هي موجودة في فرنسا الان . وكان لهذه المقولة انصار يشغلون مساحات واسعة من الشعب الفرنسي كما للمقولة الصهيونية انصار يشغلون المساحة الواسعة من الاسرائيليين ومن الصهيونيين خارج اسرائيل . وكما لاسرائيل انصار فقد كان لفرنسا انصار في مقولتها ايضا . مع فارق اساسي هو ان فرنسا ذاتها كانت قوة عظمى ، ولمئة وثلاثين عاما كان الامر هكذا . ولكن تصميم الشعب الجزائري اخرج الاستعمار الفرنسي من ارض الجزائر واسقط هذه النظرية لاستعمارية .

وكما قلت كان الوجود البريطاني في عدن وفي مناطق الخليج شبيها الى حد بعيد . واذكر انه في عام ١٩٦٦ قمنا بزيارة للاتحاد السوفييتي ، وفي حديث جانبي مع رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت ، كوسيغين ، وقد توفي الان ، قال : انه كان عندهم منذ بعض الوقت رئيس وزراء بريطانيا وقال له — اي قال للسوفييت — ان بريطانيا مستعدة لان تخوض حربا عالمية ولن تخرج من منطقة الخليج حتى ولو اقتضى بقاؤها في الخليج ان يرتب حربا عالمية تخوضها بريطانيا . بعد هذا الكلام لم يمض الا وقت قصير حتى وجد البريطانيون انفسهم مضطرين للخروج وترك الشعب اليمني حرا في ارضه وايضا بريطانيا كانت قوة عظمى .

فلماذا لا نتعظ بهذه النتائج ، بهذه الوقائع ونتائجها . نعم يجب الا نستهين بقوة اسرائيل وبقوة من يقف وراء اسرائيل ، الولايات المتحدة دولة عظمى ، امكاناتها كبيرة ، وهي مع اسرائيل قلبا وقالبا بكل قوة ، ولا يقول اي مسؤول امريكي خلاف ذلك طوال هذه السنوات التي التقينا فيها . وقد التقيت شخصيا مع كثير من المسؤولين الامريكيين ، لم يقل اي امريكي انه ضد اسرائيل ، بل لم يقل اي مسؤول امريكي انه لا يقف مع اسرائيل ولا يقدم الدعم لاسرائيل . كل هذا صحيح ، امريكا تقف مع اسرائيل ودعم امريكا كبير . ولكن الا نرى ان امريكا ذاتها — وليس بالواسطة عبر دولة صغرى كاسرائيل — امريكا نفسها كانت في فيتنام ، والقوات الامريكية وليس قوات دولة اخرى مدعمة بامكانات امريكية ، القوات الامريكية نفسها كانت في فيتنام وهي القوة المستعمرة المباشرة ، والشعب الفيتنامي تصدى مباشرة واشتبك مباشرة مع الامريكيين واستخدم الامريكيون كل ما يستطيعون استخدامه من سلاح ومال ومقاتلين امريكيين ، ولم يستطيعوا ان يصمدوا امام شعب فيتنام.

وخرج الامريكيون مهزومين دون قيد ولا شرط ، وحقق الفيتناميون ارادتهم كاملة وايضا دون قيد او شرط .

لايجوز التفريط بالحقوق

انا في كلامي هذا اريد ان اخاطب بعض اشقائنا في الاقطار العربية ، فاقول : ان لم نكن نستطيع التحرير الآن ، ان لم نكن نستطيع استرجاع حقوقنا الآن ، فيجب الا نستطيع ايضا ولا يجوز ان نستطيع ، التفريط بهذه الحقوق .

اذا لم نستطع ان نقرر ونحقق النصر اليوم ، ، فلا يجوز لنا ان نقرر ونحقق هزيمتنا اليوم . لماذا قصر النفس ؟ لماذا السرعة في فرض الهزيمة على انفسنا ؟ القضايا المصيرية كالتي نحن بصددها ليست ملكا للافراد ولو كانوا في قمة المسؤولية ، انها ملك الشعوب وليست ملكا لجيل واحد انها ملك الاجيال وعندما لا يستطيع مسؤول ولا يستطيع جيل من الاجيال ان يحقق مصالح شعبه ، مصالح الاجيال التالية ، الا ينتصر في احقاق هذه الحقوق فلا يجوز له ، لا يجوز لهذا المسؤول ولا يجوز لهذا الجيل ، ان يورث الاجيال اللاحقة هزيمة ممهورة بالصكوك ، لا يجوز له ان يسلم هزيمة مسجلة بصكوك وقع عليها المسؤول او وقع عليها الجيل عبر هذا المسؤول .

الغزو الاوروبي بقي مئتي عام كما اشرت ، فلو يئسنا عند اول جيل كشعب وكامة واستسلمنا عبر منطق التنازلات المتبادلة لكان الآن الوطن العربي محصورا في اضيق الحدود ، ولكانت الامة العربية تعيش في اضيق الارض ، ولكانت اجزاء واسعة من الارض العربية التي نعيش فيها الآن وهي ارضنا ، يعيش فيها الاوروبيون بممالكهم التي كانت وملوكهم الذين كانوا ومستوطنيهم الذين كانوا يعيشون في هذه البلاد .

وجـد بيننا مستسلمون في ذلك الوقت ولكنهم افراد وان كانوا مسؤولين في مواقع حساسة وفي اقطار هامة . ولكن الامة ككل رفضت الاستسلام وصمدت وصممت على النصر وكانت الحرب سجالا ، كانت كرا وفرا ، مدا وجزرا ، كسرنا وكسرنا على الارض ولكن ارادة النصر

لم تكسر مرة واحدة . بقيت دائما مصممة على تحقيق النصر الى ان كان النصر ضد هذه القوى بل القوة الوحيدة الكبرى والعظمى في العالم في ذلك الوقت .

دمشق هذه ، دمشق هذه ، عاصمة بلادنا . حاصرتها القوات الاوروبية ، حاصرتها الجيوش الصليبية الاوروبية بقيادة ملكي المانيا وفرنسا ، ثلاثة أشهر . وكان المقر الرئيسي لقيادتهم في ساحة المرجة وبقي العرب في دمشق صامدين يقاومون خلف اسوارهم الى ان هزم هذا الجيش الاوروبي الكبير وعاد من حيث أتى .

انها امثلة صارخة من التاريخ أكبر بكثير واضخم مما نحن فيه . مئتا عام من الزمن ، اجيال من الناس قضوا والامة بجماهيرها تكافح المستعمرين الاوروبيين . وهؤلاء المستعمرون الاوروبيون آنذاك كانوا قوة موحدة ، واحدة موحدة ، ولم نيأس فاين الصعوبة في مواجهة اسرائيل من الصعوبة في مواجهة اوروبا كاملة ؟ هل من الممكن أن يستطيع احد اقناعنا أن مواجهة اسرائيل أصعب من مواجهة اوروبا بجيوشها والاسلحة الحديثة ايضا التي كانت متوفرة في ذلك الوقت . لكل وقت حديثه لكل وقت تكنولوجيا خاصة . كانت اوروبا قوية بدولها مجتمعة ، هزمناها بهذا الحجم البشري والعسكري الضخم . فأين اسرائيل من كل هذا . اين اسرائيل من كل هذا .

بطبيعة الحال امريكا لم تكن قد عرفت في ذلك الوقت . وعلى كل حال سكان أمريكا الآن هم أحفاد اولئك الاوروبيين الذين غزوا بلادنا . في ضوء هذا تبدو أهمية انتفاضة شعبنا في الارض العربية المحتلة .

هذا هو طريق الحق

انا في كلامي هنا ايضا اخاطب في الجانب الاهم اولئك الشباب الذين يصارعون العدو . الشباب في أرض فلسطين وفي الجولان وفي جنوب لبنان . اقول هذا هو الطريق . هذا هو طريق الحق . ومن يقول لكم غير ذلك قولوا له ما تشاؤون الا ان تقولوا له : انك على صواب .

اني أقول لاخوتنا الفلسطينيين : ان دماء شهدائكم وجرحاكم غالية جدا ، وثمينة ، ولكنها لا تذهب هدرا . انها تقدم لكم وللامة العربية ولمفهوم النضال عامة . صفحات ماجدة ومجيدة من الكرامة والكبرياء ، تقدم لكم السلاح الافعل كي تحققوا حريتكم . والسلاح الامضى كي لا يغتصب العدو أرضكم الى الابد وهل بعد هذا يمكن لاحد أن يقول ان الشهادة هدر دماء . ان الشهادة عطاء وعطاء غير محدود . ولا يماثلها في عطائها اي مصدر عطاء آخر وفي كل وطن الافراد هم ملك الوطن ، ملك الشعب ، ملك الامة . كلنا كافراد يجب أن نكون مستعدين في كل لحظة لان نستشهد في سبيل الامة ، في سبيل الشعب .

كلنا ، كافراد ، زائلون ، وكلنا كشعب خالدون . نحن نتحدث ونقول ونردد شعارنا الخالد « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » ، من نعني بالخلود ؟ نعني الامة ، نعني الجماهير ، لا نعني فردا ولا نعني جيلا بحد ذاته . الخالد هو الامة هو الشعب باجيالها وأجياله المتتابعة ، وخلود الفرد هو بخلود امته ، بخلود شعبه . والفرد الاكثر جدارة أن يخلد في اطار خلود أمته هو أولا وقبل أي فرد آخر الشهيد الذي استشهد من أجل امته .

أيها الاخوة :

وهكذا كان مصير الاستعمار هنا وهناك في الوطن العربي وفي بلدان العالم ، فاكملوا طريقكم ، لا تصغوا الى كلام يائس أو وشوشة مهزوم بذاته ، أو صرير مستسلم ، أو فحيح متواطىء . فامتكم معكم . وشعب سورية لن يكون يوما الا في طليعة هذه الامة ، ضد الغزو والاستعمار ، ومن يستسلم لهما أو يتواطأ معهما .

إسرائيل تريد استسلام العرب

لا يخدعنكم أيها الاخوة في الارض المحتلة ما تسمعونه عن السلام ، فاسرائيل ليست من دعاته ولا بناته ، اسرائيل تريد استسلام العرب

لا سلام العرب ، وما تريده اسرائيل من كل تحرك هو فرض ارادتها على العرب ، وعليكم أولا عبر اجهاض انتفاضتكم . وفرض الموافقة العربية على مسخ حقوقكم وشطب دوركم من الخريطة التاريخية والنضالية العربية . وهذا لن يحصل أبدا لاننا معكم . مع انفسنا ، مع تاريخنا وجغرافيتنا .

لا أريد مناقشة المشاريع التي تطرح . ولكن أوجز واقول : انها نفسها . نفس الروح ، نفس الجوهر وان اختلفت الكلمات . لكل المشاريع التي طرحت منذ سنين عديدة ولا جديد في الامر .

الحرب مستمرة

المهم ان الحرب مستمرة والمهم أن تظل كذلك . نمارسها مرة بالبنادق ، ومرة بالحجارة . مرة بتظاهرة شعبية . ومرة بصراع عسكري شامل ، ومرات أخرى باشكال اخرى بما يتناسب ومعطيات الظروف من الجوانب المختلفة . ولكن في مختلف الظروف وبشكل مستمر يجب ان نمارس الصمود نفسيا وفكريا وماديا . باعتباره شكلا من اشكال الحرب ورفض الاستسلام ومنع العدو من تحقيق اهدافه . اولا . وقاعدة لا بد منها لممارسة كل شكل آخر من أشكال الحرب . ثانيا . يجب الا نمل . يجب أن نقاوم التعب ليس الاهم أن نخفف متاعبنا . وليس الاهم أن نحسم صراعنا غدا . بل الاهم ألا نفرط بحقوقنا وتاريخنا مهما كانت التضحيات جسيمة . وهذا هو جوهر الصمود . وصمود الشعوب ضد المستعمرين يكون خصبا ويتنامى في كل الاحوال . ولا يمكن حصره في مجموعة أو قطاع من قطاعات الشعب . فالصمود ينتشر كالهواء . خاصة بين ابناء الامة الواحدة . لا تحول دون عبوره الحدود ولا خنادق الاعداء ولا سلاح المعتدين .

ان ما يحدث في الاراضي المحتلة لا يمكن النظر اليه بمعزل عما جرى ويجري في لبنان . والموقف في لبنان لا يمكن النظر اليه بمعزل عن الموقف

في سورية . فلكل عمقه العربي . هذا منطق التاريخ لايتجاهله الا جاهل التاريخ وفاقد المنطق .

ان ما يحدث هذه الايام في الارض المحتلة هو موضع فخرنا ويجب أن نفهمه على حقيقته وان نقدره حق قدره بغض النظر عن النتائج المادية القصيرة الامد . لان ما يحدث يؤكد عزم الامة ويغذي هذا العزم . ويؤكد وحدة الامة ويعمق روح الوحدة .

فتحية لكم ايها الصامدون في فلسطين .
تحية لكم ايها الصامدون في الجولان .
تحية لكم أيها الصامدون في جنوب لبنان .
تحية لكم جميعا ايها الصامدون .

ونؤكد لكم ، أيها الاهل والابناء اننا كتلة واحدة في معركة واحـدة حتى النصر .

أيها الاخـوة :

كل طريق آخر غير طريق البناء الشامل الذي يحقق القوة الشاملة هو هزيل الجدوى ، وغالبا عديمها في صراعنا مع الغزو الصهيوني . ولا نريد ان نغلق على أحد طرقه الاخرى التي يريد ان يسلكها ثقة منه او توقعا ان تصل بالقضية الى نهايتها العادلة ، ما لم تكن طرقا دالة على التفريط والاستسلام . اننا نتعامل مع القضية وتعقيداتها ومسالكها بعقل مفتوح ، ورؤية واضحة ، وتصميم مبدئي ، بحيث لا نضل الطريق ولا نخطىء الهدف .

يجب أن ننتبه جيداً

يجب ان ننتبه جيدا ونحذر مزالق التسرع نحو الحل ، وخاصة في غياب العوامل الموضوعية المناسبة ، فنحقق حلا لمسائل العدو لا حلا لمسائلنا ، فنقع في مصيدة نصبت لنـا ، حيث التفريط وحيث المحرقة التاريخيـة .

لا مبرر للقلق ، لان المستقبل لنا وليس لاسرائيل . ان اسرائيل تملك عوامل قوة ونحن نملك عوامل قوة ، واذا تفوقت اسرائيل في بعض هذه العوامل هو تفوق عابر ، لاننا نستطيع ان نملك وسنملك قريبا أو بعيدا ما تملكه اسرائيل ، ولكن اسرائيل لا تستطيع ان تملك قريبا أو بعيدا ما يملكه العرب لاننا نملك أمرين اساسيين خارج قدرة اسرائيل الآن وكل آن ، هما الحق الساطع والشعب الواسع .

فلنسر الى الامام بعيون مفتوحة ، وقلوب مشروحة ، وثقة الشهيد بالنصر الاكيد .

ايها الاخـوة :

ان العالم وهو على أبواب القرن الحادي والعشرين يرغب ان ينتقل وهو بعافية أفضل وبمناخ أدعى الى الاطمئنان وانعدام الخوف والقلق على التطور البشري وعلى المصير والحياة البشرية .

ولذلك يجري الاهتمام بشكل واسع ومتنام في كل مكان بالعمل على الحد من السلاح النووي وتخفيضه وصولا الى ازالته ويزداد ضغط أنصار السلام والرأي العام العالمي في هذا الاتجاه ، لان هذا السلاح هو اخطر ما يهدد الحضارة والحياة الانسانية على وجه الارض .

جهود الاتحاد السوفييتي كبيرة

ولا شك في أن جهود الاتحاد السوفييتي كبيرة في هذا المجال ، وقد كرر مبادراته وتابعها بدأب طوال السنوات الماضية ، وقد تحققت في هذه الفترة اتفاقيـة التخلص من الاسلحـة النووية المتوسطة والاقصر مدى . وهي خطوة هامـة من حيث أنهـا أول مرة يتفق فيها على تخفيض السلاح النووي وازالة نوع من أنواعه . اننا نؤيد بقوة هـذا الاتفاق ونحض على اتفاقات لاحقـة باتجاه متابعة تخفيض هـذا السلاح حتى ازالته نهائيا .

كما ان الوضع الاقتصادي العالمي يشكل مدعاة لقلق شعوب العالم لأنه لايحقق العدالة ويتناقض مع ضرورات الامن والسلم الدوليين . ومن الصعب ان يتحقق الاستقرار العالمي بينما أكثرية شعوب العالم تتعرض للاستغلال المستمر من قبل الدول الاكثر تقدما . ان الهوة تزداد اتساعا بين دول العالم الثالث والدول المتقدمة . لا بد من اعادة النظر في النظام الاقتصادي العالمي ، ويجب ان يتصاعد النضال من اجل ذلك ، بحيث يقوم هذا النظام على أسس عادلة تضيق الهوة بين شعوب العالم وتساعد على التنمية الاقتصادية والاجتماعية بشكل متواز .

ايها الاخـوة :

ان موقفنا من حركات التحرير الوطني ثابت ونحن معها اينما وجدت في كل بقاع العالم . وعلاقاتنا الدولية ثابتة في اطار عـدم الانحياز . ومجموعة الدول الاسلامية . كما تنمو علاقاتنا مع البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي البلد الصديق الذي تزداد علاقاتنا معه توطدا بشكل مستمر . والذي يقف دائما الى جانبنا في نضالنا ضـد العدوان ومن اجل تحقيق سلام عادل يعيد جميع الاراضي العربية المحتلة وحقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة .

ايها الاخـوة المواطنون :

ايهـا الرفـاق :

لنكن إرادة واحدة

لنسر جميعا متكاتفين متعاونين ننشر الحب في كل مكان من بلادنا . وليعمق كل منا ثقته بنفسه . وليكن كل منا مستعدا دائما للتضحية بكل شيء من اجل الآخرين . شعبه ووطنه . لنفخر بشعبنا ، بوطننا ، بتاريخنا . ولنرفع راية الشعب والوطن عاليا حتى السماء . لنبن جميعا وطننا بكل قوة ليكون قلعة المحبة والصمود ضد كل الغزاة والطامعين .

انا أمة عظيمة . نعمل من أجل وحدتها وتضامنها ونستطيع ان ننجز من هذا الامر ونفيد هذه الامة بقدر ما يكون وطننا قويا . ويقوى الوطن بقوة كل فرد منكم ، وتكاتفكم ، بحيث نكون جميعا يدا واحدة . قلبا واحدا . ارادة واحدة .

عندما نكون أقوياء تقوى أمتنا العربية . اذا عزت سورية عز العرب . واذا ذلت ذل العرب . ولن تذل بعون الله وارادتكم .

تحيتي لكم . حبي لكم . كلي لكم .

والى خمس وعشرين سنة قادمة ان شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله

* * *

سنون .. وذكريات

الدكتور محمد زهير مشارقة
نائب السيد رئيس الجمهورية

سنوات خمس وعشرون مرت على قيام ثورة الثامن من آذار ، ثورة العمال والفلاحين ، ثورة الجنود والطلبة ، ثورة المثقفين الثوريين وصغار الكسبة ، ثورة الجماهير الشعبية الكادحة . إنها فترة تبدو طويلة في عمر الإنسان الفرد ، ولكنها قصيرة في عمر الشعوب ، ولا سيما حينما تكون حافلة بالإنجازات والمكتسبات والانتصارات التي حققتها الجماهير الشعبية في مجالات عديدة ، وميادين شتى . وإذا كانت جلالة الذكرى تنبع من جلالة الحدث فما أجل الذكرى ، وما أعظم الحدث ..

ففي الثامن من آذار عام ثلاثة وستين وتسعمائة والف ، تحركت الجماهير الشعبية الكادحة في قطرنا الصامد ، يقود نضالها طليعتها الثورية ، حزبها القائد ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، وقامت بثورتها الظافرة ثورة الثامن من آذار ، ووضعت بذلك حداً نهائياً لعهد الانفصال الأسود ، ومحت جريمة الانفصال البشعة . تلك الجريمة التي ارتكبتها القوى الرجعية بالتنسيق مع القوى الامبريالية والصهيونية ، وحطمت بها آمال الجماهير العربية بنضالها على دولة الوحدة بين سورية ومصر ، تلك الدولة التي كانت هدفاً وأملاً ترنو إليه الجماهير العربية من أقصى الأرض العربية إلى أقصاها : وترى فيها نواة لدولة الوحدة الكبرى التي تضم شمل الأمة العربية من محيطها إلى خليجها .

وحررت الجماهير مقاليد أمورها من أيدي البورجوازيين ، من أيدي الراسماليين والاقطاعيين ، من أيدي الرجعيين ، واصبحت سيدة نفسها ، واصبح زمام امرها بيدها ، تصرف شؤونها بما يخدم مصالحها وتوجهاتها ، وتناضل في سبيل تحقيق آمالها وتطلعاتها ، وتعمل من أجل تحقيق الغد المنشود على الصعيد القومي .

★ ★ ★

يوم مشهود

ما من يوم في تاريخنا المعاصر كان يوماً مشهوداً كيوم الثامن من آذار عام ثلاثة وستين وتسعمائة والف ، ففيه دحرت الجماهير الشعبية الكادحة بقيادة حزبها العظيم حزب البعث العربي الاشتراكي كل قوى التخلف والرجعي ، قوى الردة والانفصال ، قوى الاستغلال التي كانت تستغل طاقات الكادحين من عمال وفلاحين وتسلبهم ثمرة جهودهم، وتحرمهم من حصيلة كدهم وجدهم وعرق جباههم . القوى التي كانت تناصب الجماهير الكادحة العداء ، وتحالف اعداءها من قوى امبريالية وصهيونية . دحرتها الى الأبد ، واعادت الحق الى نصابه، فاقامت سلطتا

الثورية ، سلطتها الشعبية ، سلطة الكادحين من عمال وفلاحين ، سلطة الجماهير صاحبة الحق في كل شيء ، السلطة التي تناضل من أجل بناء المستقبل المشرق الزاهر للامة العربية . المستقبل الذي ترفرف فيه رايات الوحدة والحرية والاشتراكية فوق جميع أرجاء الأرض العربية من المحيط الى الخليج .

خمسة وعشرون عاماً انقضت على قيام ثورة آذار المجيدة ، كانت أعواماً حافلة بالعمل الجاد الدؤوب ، حافلة بالعطاء ببذل وسخاء، عملت فيها الجماهير الشعبية بهمة عالية ونشاط لا هوادة فيه من اجل بناء مستقبلها، واعلاء صرح مجدها، وتحقيق اهدافها النضالية على الصعيدين الوطني والقومي .

لكن طريق الثورة لم يكن سهلاً ، ولا مفروشاً بالورود والرياحين ، فقد اعترضتها العقبات والصعوبات ، وقامت في وجهها العوائق منذ البداية . وقد تمثل ذلك بالمؤامرات العديدة التي حيكت واستهدفت ثورة العمال والفلاحين ، ثورة الجماهير الكادحة ، ثورة البعث العظيم وهي في شهورها الأولى .

فالقوى المعادية للجماهير الشعبية الكادحة وتطلعاتها وامانيها ، حاولت غير مرة أن تكر على الجماهير ، أن تنال من ثورتها ، أن تجهضها ، وأن تعيد عجلة التاريخ إلى الوراء ، إلا أن الجماهير كانت بالمرصاد لأعدائها ، تتصدى لهم ، تحبط مخططاتهم ، وتسقط مؤامراتهم ، وترد كيدهم الى نحورهم . وتمضي في طريقها النضالية بقيادة حزبها العظيم حزب البعث العربي الاشتراكي ظافرة منتصرة ، وهي كاقوى ما يكون عزيمة ومضاء على مواصلة النضال وبلوغ الغاية وتحقيق الهدف .

وبعيد قيام ثورة آذار المجيدة ، اخذت الجماهير الشعبية الكادحة تجني ثمار انتصارها في ذلك اليوم الأغر ، فقد بدأت الجماهير بتحقيق اوائل إنجازاتها ، ونيل بواكير مكتسباتها ، فكانت قرارات تاميم

المصارف ، وتأميم بعض الشركات في حلب ودمشق في عام ١٩٦٤ ، وكان قانون الإصلاح الزراعي المعدل في العام ذاته ، وفي أول عام ١٩٦٥ وفي اليوم الثاني منه على وجه التحديد صدرت قرارات التأميم الشامل للشركات العاملة في القطاع الصناعي في حلب ودمشق وغيرهما ، ثم تلا ذلك قرارات تأميم اخرى شملت بعض القطاعات ، وتم إحداث مؤسسات قطاع عام بعضها يتولى الإشراف على القطاع الصناعي المؤمم ، ويتولى بعضها الآخر القيام باعمال التجارة الخارجية والداخلية .

★ ★ ★

الحركة التصحيحية و التصدي للانحراف

وإذا كان حزبنا العظيم حزب البعث العربي الاشتراكي ، وهو يقود نضال العمال والفلاحين ، نضال الجماهير الشعبية الكادحة ، قد تعرض لصعوبات وعوائق حاولت القوى المعادية لجماهير الشعب ان تضعها في مسار الثورة ، وساهمت من خلالها بحوك بعض المؤامرات على الحزب والثورة ومكاسب الجماهير الكادحة ، فإن الحزب قد تعرض ايضاً لصعوبات ذاتية انبعثت من ذاته ، وتمثلت بالزمر التي تسلطت على مواقع القيادة والقرار فيه ، وحاولت ان تحرفه عن خطه النضالي الأصيل حيناً، أو أن تضع بينه وبين جماهير الشعب حائلاً يحول دون اتصاله بها وتفاعله معها ... ففي البداية عانى حزبنا من الزمرة اليمينية المتخلفة العفنة التي تسلطت على مواقع قيادية معينة فيه ، وحاولت من خلال عقليتها المتخلفة ، واساليبها المنحرفة ، وطروحاتها المنافية لثورية البعث وروحه النضالية ، ان تحرف الحزب عن مسار نضاله الصحيح ، وتحول بينه وبين تحقيق تطلعاته وأهدافه .

إلا ان قواعد حزبنا حزمت امرها ، وتصدت لهذه الزمرة اليمينية المنحرفة ، وحسمت أمرها صبيحة الثالث والعشرين من شباط عام

١٩٦٦ ، وخلصت الحزب منها ومن اساليبها وممارساتها ، ولفظتها من بين صفوفها وطهرت تلك الصفوف منها إلى الأبد .

وتابع الحزب مسيرته النضالية على دروب البناء والتحرير ، إلا انه ما لبث أن عانى من صعوبة ذاتية اخرى نجمت عن هيمنة العقلية المتسلطة المناورة على مواقع القيادة والقرار فيه ، وتحكمها بمقدراته ، وسعيها إلى إبعاده عن مساره النضالي الصحيح ، وإيجاد هوة بينه وبين جماهيره الشعبية ، وإطلاقها الشعارات النارية التي لا أثر لها في ارض الواقع ، وتكبيل مناضليه ، وتقييد نضاله . إلا أن قواعد حزبنا لم تستكن ولم تستسلم ولم تقبل بهذا الواقع المرير ، فعقدت العزم على تحرير الحزب من تلك العقلية المتسلطة المناورة ، وعلى وضع العمل النضالي للحزب وجماهير الشعب في مساره الصحيح ،فكانت حركة السادس عشر من تشرين الثاني التصحيحية عام سبعين وتسعمائة والف . ففي صباح ذلك اليوم الأغر انطلقت جماهير شعبنا وقواعد حزبنا بقيادة الرفيق المناضل حافظ الأسد الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية قائد مسيرة أمتنا العربية على دروب النصر والتحرير . لتضع حداً نهائياً للعقلية المتسلطة المناورة واساليبها ، ولتنقذ قواعد الحزب وجماهير الشعب منها ومن ممارساتها ، ولتطهر صفوف الحزب منها تطهيراً شاملاً ، ولتضع الأمور في نصابها ، وتتابع مسيرتها النضالية الظافرة على طريق تحقيق تطلعاتها في ميادين البناء والتحرير ، واهدافها القومية الكبرى في الوحدة والحرية والاشتراكية .

إن الحركة التصحيحية المباركة التي قادها الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية لم تكن حدثاً عادياً كباقي الأحداث في حياة قطرنا وجماهير شعبنا ، وإنما كانت انعطافاً تاريخياً حاسماً في حياة الحزب والثورة وجماهير الشعب. فقد اعادت الأمور إلى نصابها ، كما اشرنا إلى ذلك آنفاً ، ووضعت الثورة

في المسار الصحيح ، وفتحت الباب على مصراعيه أمام قواعد الحزب وجماهير الشعب لتفجير طاقاتها ، وتقديم كل إمكاناتها لعملية البناء والتحرير في مسيرة نضالية ظافرة يقودها باني سورية الحديثة الرئيس المناضل حافظ الأسد . ولعل أول ما سمت الحركة التصحيحية المباركة إلى تحقيقه هو إعادة الحزب إلى جماهيره الشعبية الكادحة ، وإعادة الجماهير إلى حزبها القائد ، وزيادة العلاقة بينهما وثوقاً ، وتعميق الصلة وتعزيز الثقة لمواصلة الكفاح والنضال في سبيل تحقيق الأهداف الوطنية والقومية .

وبعد أن عملت الحركة التصحيحية على تعزيز الثقة وتوثيق العلاقة بين الحزب وجماهير الشعب لتصبح من القوة بمكان .. التفتت إلى الحزب ذاته ، أولته العناية والاهتمام اللازمين ، فاعادت النظر في بنيته وفاعليته ، وهيأت له ظروف نشأة جديدة بخصائص تنسجم ومتطلبات المراحل النضالية التي عليه أن يجتازها ، فاصبح الحزب خلال بضع سنين شيئاً جديداً في بنيته وفاعليته ، في كمه ونوعه .. قبل قيام الحركة التصحيحية المباركة كان عدد أعضاء الحزب في هذه المحافظة أو تلك محدوداً لا يزيد على بضع عشرات من الرفاق ، وأصبح بعد قيام الحركة ، وبفضل توجيهات الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية ، يضم الآلاف المؤلفة من الرفاق المناضلين ، إذ بفضل توجيهات الرفيق القائد حافظ الأسد اتسعت أطر الحزب لتضم كل المناضلين من جماهيرنا الشعبية الكادحة ، من العمال والفلاحين ، من الشبيبة والطلبة ، من الجنود وصغار الكسبة ، أولئك المناضلين الذين آمنوا بالبعث مبدأ وعقيدة ، وبالرفيق المناضل حافظ الأسد قائداً وأميناً ، وبالمسيرة النضالية الظافرة بقيادته التاريخية الحكيمة ، والشجاعة على دروب النصر والتحرير مساراً ومنهاجاً .

كان عدد الرفاق البعثيين في محافظة حلب قبل قيام الحركة التصحيحية ، على سبيل المثال ، قرابة سبعين عضواً ، وأصبح هذا العدد

في ظل الحركة التصحيحية ، والقيادة التاريخية الحكيمة ، والشجاعة للرفيق المناضل حافظ الأسد يناهز السبعين ألف مناضل . والشيء ذاته يقال في شأن باقي المحافظات ..

وفي إعادة النظر في بنية الحزب وفاعليته ، وتهيئة ظروف نشأة جديدة له ، لم تول مسألة الكم وحدها الاهتمام اللازم ، بل إن مسألة النوع أوليت الاهتمام ذاته كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

فمسألة التثقيف والإعداد كانت من المسائل التي رعاها الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام للحزب ، وكان إحداث مكتب مستقل يتولى هذه المسألة في أعقاب المؤتمر القطري السادس عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف ، عملاً بتوجيهات الرفيق المناضل حافظ الأسد .

وكانت خطب الرفيق الأمين العام وكلماته في المناسبات المختلفة ، ومقررات مؤتمرات الحزب القومية والقطرية ، وأدبيات الحزب في المجالات المختلفة ، وتجاربه الفنية في ميادين النضال الوحدوي والنضال التحرري على الصعيد القومي ، وفي مجال البناء الاقتصادي والتحويل الاشتراكي على الصعيد الداخلي وما إلى ذلك ، مادة أساسية في إعداد الرفاق البعثيين إعداداً نضالياً ملائماً ينسجم ومتطلبات المسيرة النضالية ، مسيرة البناء والتحرير ، مسيرة التقدم والاشتراكية لقواعد حزبنا وجماهير شعبنا بقيادة الرفيق المناضل حافظ الأسد قائد مسيرتنا الظافرة على دروب النصر والتحرير ..

وعلى هذا ، وفي ضوء النشأة الجديدة لحزبنا العظيم حزب البعث العربي الاشتراكي ، نستطيع أن نقول : إن الرفيق المناضل حافظ الأسد هو المؤسس الحقيقي لحزب البعث العربي الاشتراكي والسلطة الثورية سلطة الجماهير الشعبية ، سلطة البعث في القطر العربي السوري كما كان

عبد الملك بن مروان المؤسس الحقيقي للدولة الأموية ، وأبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ..

ولقد تجلت الآثار الإيجابية للتوجهات الجديدة في توسيع اطر قواعد الحزب وإعداد مناضليه في دروب التضحية والبطولة والفداء التي ابداها رفاقنا البعثيون في حلب وإدلب وحماة ودمشق وحمص واللاذقية وسواها من محافظات القطر ، وهم يتصدون للمخطط التآمري الداخلي الذي حاكته الدوائر الامبريالية والصهيونية بالتنسيق مع القوى الرجعية ، واتخذت من عصابة الإخوان المسلمين المجرمة العميلة اداة لتنفيذه . ولقد استطاعت قواعد حزبنا وجماهير شعبنا في النهاية ان تحبط المؤامرة ، وان تسحق ادواتها الرخيصة من تنظيم عصابة الإخوان المسلمين المجرمة العميلة .

* * *

الوحدة الوطنية والديمقراطية الشعبية

اما عن الوحدة الوطنية فقد كانت هدفاً من الأهداف التي سعت الحركة التصحيحية المباركة إلى تحقيقها من اجل مواجهة القضايا المصيرية التي تهم المواطنين كافة ، وفي مقدمتها قضايا البناء والتحرير ، ومن اجل حشد كل الطاقات لصالح القضايا الوطنية . وعلى هذا فإن الجبهة الوطنية التقدمية كانت الإطار الذي ضم جميع القوى والأحزاب الوطنية والتقدمية في القطر العربي السوري ، بالإضافة إلى قوى شعبية اخرى تمثلها المنظمات الشعبية كاتحاد نقابات العمال واتحاد الفلاحين واتحاد شبيبة الثورة وما إليها . إن الجبهة الوطنية التقدمية كانت إنجازاً كبيراً بارزاً من إنجازات الحركة التصحيحية المباركة . وقد أثبتت بعد مضي سنوات على إنشائها فاعليتها وكفايتها من خلال الدور الفعال الذي تقوم به في مسيرة النضال التحرري لجماهيرنا الشعبية في قطرنا الصامد . والديموقراطية الشعبية لم تعد شعاراً مرفوعاً في ظل

الحركة التصحيحية المباركة ، فقد اخذ هذا الشعار طريقه إلى التطبيق ، واصبح واقعاً قائماً في مؤسسات شتى انشأتها الحركة التصحيحية ، وكانت من جملة ما حققت من إنجازات ومكتسبات للجماهير الشعبية الكادحة في هذا القطر ..

فمجالس الإدارة المحلية وسلطاتها الواسعة التي تعالج بموجبها الكثير من الشؤون المحلية التي تهم المواطنين ، ومجلس الشعب الذي هو السلطة التشريعية العليا في البلد ، والذي يضم ممثلين عن جميع الفئات والفعاليات الاجتماعية ، والذي يتبوأ فيه ممثلو الكادحين من عمال وفلاحين مواقع مؤثرة فاعلة ، كان احد إنجازات الحركة التصحيحية . وقد اثبت من خلال قيامه بمهامه على اكمل وجه انه كان تجربة ناجحة ومؤثرة وقيمة ، وانه المؤسسة الأهم بين المؤسسات التي احدثتها الحركة التصحيحية المباركة لممارسة الديموقراطية الشعبية بأجلى معانيها .

وما يقال عن مجلس الشعب يقال عن الدستور الدائم الذي كان إحدى عطايا الرئيس القائد للجماهير ، والذي كان مجالاً لتأطير الديموقراطية الشعبية وتعميق مفاهيمها وترسيخها .

ومع ترسيخ الديموقراطية الشعبية فإن الحركة التصحيحية المباركة عمقت دور الجماهير الشعبية ، وزادت فاعليتها من خلال منظماتها المختلفة ، كاتحاد نقابات العمال واتحاد الفلاحين والاتحاد العام النسائي والاتحاد العام لطلبة سورية واتحاد شبيبة الثورة ونقابة المعلمين وما إليها . ولقد اعطيت هذه المنظمات دوراً كبيراً يتناسب والمهام المسندة إليها في نطاق نشاطاتها الجماهيرية ، وبخاصة اتحاد العمال والفلاحين ، فلقد خولها الرئيس القائد حافظ الأسد سلطة اتخاذ القرار في كل ما يتعلق بشؤون جماهير العمال والفلاحين وما يمس مصالح هذه الجماهير .

هذا وإن جو الاستقرار التام الذي خيم على القطر العربي السوري في ظل الحركة التصحيحية المباركة ، والذي لم يشهد له القطر مثيلاً منذ حقبة مديدة بل منذ فجر الاستقلال ، كان عاملاً على توفير الكثير من الجهد والوقت اللازمين لعملية البناء الداخلي ، فقد شرعت الجماهير الشعبية بالقيام بعملية البناء الاقتصادي بقيادة قائد مسيرتها المظفرة الرئيس المناضل حافظ الأسد وعملاً بتوجيهاته ، وأولت كل القطاعات الاقتصادية اهتمامها الكبير . ففي مجال الزراعة تم إنشـاء العديد من السدود وتقنية الري ، وتم استصلاح مساحات واسعة من الأراضي ، وادخلـت المكننـة الزراعية والـدورة الزراعيـة إلى عمليـة الاستثمار الزراعي ، وجرى توزيع المهندسين الزراعيين على الريف للاستفادة من خبراتهم وتجاربهم .

وفي مجال الصناعة جرى تطوير الصناعات القائمة في العديد من منشآت القطاع الصناعي المؤمم ، كما جرى إنشاء الكثير من المنشآت الصناعية ، في مجال الغزل والنسيج والزجاج ، ودباغة الجلود والإسمنت والمصابيـح الكهربائيـة ، والأسمدة والورق والإطارات والمعلبـات ، والأدوات الصحية ، والمواد الغذائية والمولدات الكهربائية والجرارات ، وأقلام الرصاص وصنع الأخشاب ، والأحذية والسكر ، وصهر الخردة ، وغسل الصوف وما إليها . وهذه المنشآت الصناعية سهلت الحصول على مزيد من فرص العمل للآلاف المؤلفة من الأيدي العاملة في مختلف مناطق القطر ، كما جعلت دور القطاع العام دوراً قيادياً وريادياً في اقتصاديات القطر العربي السوري .

وفي مجال التربية تم تطبيق إلزامية التعليم للمرة الأولى في القطر ، وكان تطبيقها شاملاً ، وتم توفير مستلزمات ذلك التطبيق من مدارس ولوازم ومعلمين مؤهلين وما إلى ذلك ، كما تم إحداث المئات من المدارس الإعدادية والثانوية العامة ، وأولي التعليم الفني ما يستحق من عناية ورعاية ، وقضت توجيهات الرئيس المناضل حافظ الأسد بإحداث العشرات من الثانويات الصناعية في مختلف محافظات القطـر ، وفي

العديد من المناطق الإدارية لتستوعب المزيد من أعداد الطلبة الذين تحتاجهم خطط التنمية من مختلف الاختصاصات .

هذا وقد أحدث العديد من المعاهد المتوسطة التي يقبل فيها الطلبة بعد نيل شهادة الدراسة الثانوية ، وتكون مدة الدراسة فيها عامين كاملين .. وجرى تنويع اختصاصاتها وفق ظروف المحافظات وحاجات التنمية .

وما يقال في التربية يقال في التعليم العالي ، فلقد أولي هذا النوع من التعليم ما يستحق من اهتمام أيضاً ، وجرى تطوير الجامعات القائمة ، وإحداث جامعتين جديدتين ، هما جامعة تشرين في اللاذقية وجامعة البعث في حمص ، وأحدث العديد من الكليات العلمية والعملية وفق متطلبات خطط التنمية ، كما تم توفير مستلزمات التعليم العالي من كتب ومدرسين وأبنية ومستلزمات أخرى .

وفي مجال الكهرباء فإن كهربة الريف يعد واحداً من أبرز إنجازات الحركة التصحيحية المباركة ، إذ ساهم ذلك بنقل الريف نقلة نوعية على طريق حياة حديثة معاصرة .

وأما الخدمات الصحية فإن كثيراً من المستوصفات والمستشفيات أحدثت في مختلف أرجاء القطر لتوفير الخدمات الصحية على اختلاف أنواعها للمواطنين .

والشيء ذاته يقال في الخدمات والمرافق الأخرى من مرافىء ومطارات وسكك حديد وطرق معبدة حديثة وجسور وما إليها .

ولو أردنا أن نتابع الحديث عن الخدمات الأخرى من مواصلات سلكية ـ هاتف ـ ولاسلكية ، وتأمين مياه الشرب للريف ، ومشاريع الإسكان الحكومية والتعاونية والمشاريع السياحية والثقافية من مراكز ثقافية ثابتة ومتنقلة ودور كتب وما إليها لضاق بنا المقام ..

وزبدة القول إن القطر العربي السوري أصبح في ظل الحركة التصحيحية المباركة وبفضل توجيهات الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية ورشة عمل كبرى تنفذ فيها مئات المشاريع في مختلف المحافظات على طريق بناء سورية الحديثة .

★ ★ ★

لقد كانت معارك البناء الاقتصادي التي خاضتها جماهيرنا الشعبية على الصعيد الداخلي مقدمة لخوض معارك النضال التحرري على الصعيد القومي .

فثمة مقولات عملت جماهيرنا بموجبها انبثقت عن المواقف المبدئية الثابتة لقطرنا الصامد المناضل من مختلف قضايا نضالنا القومي ، وفي مقدمتها قضية تحرير الأراضي العربية المحتلة كافة ، واسترجاع الحقوق القومية المغتصبة جميعاً ، وفي طليعتها الحقوق الوطنية لشعبنا العربي الفلسطيني في العودة وفي تقرير المصير وفي إقامة دولته المستقلة فوق أرضه وترابه الوطني .

هذه المقولات قضت ببناء القاعدة المادية الصلبة للصمود والتصدي لتعزيز مواقف القطر العربي السوري في مواجهة أعداء الامة العربية من امبرياليين وصهاينة ، ولمواجهة مخططات أولئك الأعداء وإحباطها ، ولخوض غمار معارك النضال التحرري على الصعيد القومي حتى تتحقق الأهداف النضالية لجماهيرنا العربية . وقد تجلى ذلك في معارك البناء الاقتصادي على الصعيد الداخلي التي تحدثنا عنها من قبل .

وقضت تلك المقولات ايضاً بتعميق تجربة الجيش العقائدي الملتزم بقضايا الجماهير واهدافها النضالية ، وتطوير هذه التجربة ، وقد كانت هذه المسألة من المسائل التي استرعت اهتمام الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية القائد العام للجيش والقوات المسلحة ، وكانت موضع عنايته ورعايته ، فلقد أراد الرئيس القائد لقواتنا المسلحة الباسلة ان تكون حامية حمى الأمة العربية ، تدافع عن أراضيها ، وتذود عنها الأعداء ، وترد

كيدهم إلى نحورهم ، وأن تكون تلك القوات عدة الأمة العربية في معارك التحرير والنصر . فقضت توجيهاته بتطوير قواتنا المسلحة كماً وكيفاً ، تدريباً وتسليحاً ، وتعبئة مادية ، وتعبئة معنوية ، وان تكون على أهبة الاستعداد التام لتلبية نداء الواجب القومي في كل حين .

ولقد اثبتت الظروف والوقائع ان قواتنا المسلحة الباسلة كانت دائماً وأبداً عند حسن ظن امتها العربية بها ، والوقائع المشهودة التي خاضت غمارها ، ومعارك الشرف والبطولة التي أبلت فيها بلاءً حسناً وهي تدافع عن الأمة العربية وشرفها وكرامتها وحقوقها خير دليل على ذلك .

* * *

حرب تشرين شاهد صدق

وما حرب تشرين التحريرية المجيدة وحرب الجولان وجبل الشيخ إلا شاهد صدق على الدور المشرف لقواتنا المسلحة الباسلة على صعيد النضال التحرري ، فلقد سطر جيشنا العربي السوري البطل في حرب تشرين التحريرية المجيدة أروع آيات التضحية والبطولة والفداء ، واضاف إلى سجل أمجاد الأمة العربية ملحمة خالدة من ملاحم التاريخ . واستطاع مقاتلونا الأبطال أن يحطموا في هذه الحرب أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر ، واعادوا الثقة إلى النفوس ، ثقة المواطن العربي بقدرة الجندي العربي على استيعاب تقنية الحرب الحديثة ، والتكيف مع متطلبات المعركة ، والأداء الحسن الرائع في مختلف الظروف والأحوال. واثبتت هذه الحرب للعالم أجمع ان الحق العربي لا يمكن ان يموت ما دام جند هذا الحق على استعداد لاسترجاعه مهما عز الثمن وبلغت التضحيات ، وكانت حرب تشرين المجيدة خطوة أساسية على طريق تحرير الأراضي العربية المحتلة واسترجاع الحقوق القومية المغتصبة . وكذلك فعل جنودنا الأشاوس في حرب الجولان وجبل الشيخ،

كانوا وحدهم في مواجهة العدو ، وكانت تضحياتهم مضرب المثل ، وبطولاتهم بطولات فئة نادرة ، وسجلوا في هذه الحرب صفحات مجد وبطولة جديدة تفخر بها الأمة العربية حاضراً ومستقبلاً .

وفي أوائل حزيران من عام اثنين وثمانين وتسعمائة وألف تصدت قواتنا المسلحة الباسلة الموجودة على الأرض اللبنانية لقوات العدو الصهيوني حينما قام هذا العدو بغزوه الهمجي لربوع لبنان ، فلقد واجه جنودنا الأبطال قوات العدو الصهيوني براً وجواً ، واستطاعوا ان يوقفوا تقدم العدو على العديد من محاور القتال التي كان يتقدم عليها ، وألحقوا بالعدو الصهيوني خسائر فادحة بالعتاد والمعدات والأرواح . وسطر نسورنا البواسل في سماء لبنان ملحمة بطولية ناصعة بالرغم من عدم تكافؤ ظروف المعركة ، وبالرغم من التفاوت كماً وكيفاً بين ما لدينا وبين مادفع به العدو إلى سماء المعركة .. وفي بيروت وأثناء حصارها من قبل قوات العدو الصهيوني سطرت قواتنا المسلحة الموجودة فيها اروع آيات البطولة والفداء في صمودها وفي تصديها للعدو وفي دفاعها عن بيروت .. فلقد حالوا دون سقوطها في ايدي القوات الغازية ، ورغم أن العدو شن عليها بضعة عشر هجوماً في اوقات متلاحقة بغية اجتياحها ، وكان يمهد لكل عملية هجوم بان يمطر بيروت بوابل من حمم مدافعه وصواريخه ونيران قاذفاته ، إلا أن مقاتلينا الأبطال وجنودنا البواسل كانوا يردونه مدحوراً في كل مرة يحاول فيها اجتياح بيروت ، وكان صمودهم مضرب المثل رغم ظروف الحصار الصعبة المريرة ورغم انقطاع الماء والكهرباء ونفاد المؤن ونقص الذخائر .

لقد كان مقاتلونا البواسل في حرب لبنان وحدهم في ساحات المعارك، دافعوا عن لبنان وعن المقاومة الفلسطينية ، وعن الأمة العربية وشرفها وكرامتها وكبريائها ، وقدموا كل ما أمكن تقديمه من دم وجهد وإمكانات. في الوقت الذي كان الآخرون فيه يقفون موقف المتفرج بين شامت وصامت ومزايد بالكلام الذي لا غناء فيه .

★ ★ ★

التصدي لأعداء الأمة

وتصدت سورية الأسـد لمخططات أعداء الأمة العربية ومؤامراتهم التي كانوا يبغون من ورائها فرض الحلول الاستسلامية على الأمة العربية، والمشاريع التصفوية التي يسعون من ورائها إلى تصفية قضية فلسطين جملةً وتفصيلاً ، وإجهاض نتائج حرب تشرين التحريرية المجيدة ، فلقد تصدت سورية لاتفاقات كامب ديفيد الخيانيـة التي أبرمهـا والعدو الصهيوني الخائن المقتول أنور السادات . واستطاعت جماهيرنا المناضلة بقيادة قائد المسيرة الرئيس المناضل حافـظ الأسـد أن تدخل هـذه الاتفاقات في طريق مسدود لا تجد لها منه مخرجاً ، بعد أن كانت الدوائر الامبريالية والصهيونية ترى فيها القاعدة والمنطلق لتعم المنطقة العربية بأسرها .. وكذلك فعلت جماهيرنا الشعبية البطلة بالمشروع الذي طرحته الإدارة الأمريكية عام ١٩٨١ والمسمى بمشروع ريغان ، والذي لم يكن إلا صورة طبق الأصل لاتفاقيات كامب ديفيد الخيانية تزيدها سوءاً في تنكرها جملة وتفصيلاً للحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني، فلقد تمكنت جماهيرنا بتصديها لهذا المشروع من إحباطه وإسقاطه .

والشيء ذاته يقال في اتفاق / ١٧ / أيار لعام ١٩٨٣ اتفاق الإذعان الذي اراد العدو الصهيوني والامبريالية الأمريكية فرضه على لبنان عقب الغزو الهمجي واستثماراً منها لنتائج هذا الغزو ، فلقد كان العدو الصهيوني يبغي من هذا الاتفاق عزل لبنان عن محيطه العربي ، وقطـع أواصره بأمته العربية، وتقييد حرية لبنان في سمائه ومائه وأرضه، وتقييد حرية الفكر فيه ، وأن يجعل من لبنان محمية إسرائيلية لا أكثر ولا أقل .. فقالت سورية : لا لاتفاق الإذعان هذا ، واستطاع قطرنا الصامد بقيـادة الرئيس المناضل حافـظ الأسـد أن يحبط اتفاق الإذعان هـذا : وان يسقطه ، وكان إسقاطه نصراً تاريخياً مؤزراً للأمة العربية على اعدائهـا

الامبرياليين والصهاينة . وادركت الدوائر الامبريالية والصهيونية منذ حين أن سورية تقف عقبة كاداء تحول بين هذه الدوائر وبين تنفيذ مخططاتها ومشاريعها في المنطقة العربية ، فبدأت تحوك المخططات التآمرية على سورية رامية من ورائها إلى خضد شوكتها ، والنيل من صمودها ، ودفعها إلى الركوع والاستسلام . وكان التآمر الخارجي على سورية ، وكانت احداث لبنان التي بدأت في الثالث عشر من نيسان ١٩٧٥ مع حادث عين الرمانة مظهراً من مظاهر التآمر الخارجي عليها .. إلا أن سورية لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء ما يجري على الساحة اللبنانية ، فقامت بمبادرتها الأخوية تجاه لبنان الشقيق بتوجيه مباشر من الرفيق المناضل حافظ الأسد ، واستطاعت بفضل هذه المبادرة أن تحقن الدماء البريئة التي كانت تراق على أرض لبنان من منطلقات طائفية مقيتة ، وأن تحافظ على وحدة لبنان ارضاً وشعباً بعد أن كانت الدوائر الامبريالية والصهيونية أعدت مخططات تمزيقه وتقسيمه إلى كيانات طائفية هزيلة تخلق الجو المواتي في المنطقة لإطالة أمد وجود كيان العدو الصهيوني الغريب في فلسطين المحتلة ، وحالت المبادرة السورية دون تصفية المقاومة الفلسطينية من على الأرض اللبنانية ، لأن تصفيتها كانت من بين أهداف المخطط الامبريالي الصهيوني . ولاتزال سورية تقوم بدورها الأخوي تجاه لبنان مؤكدة أن لا سبيل إلى حل مشكلة لبنان وتجاوز محنته وتخطي الظروف الشاذة التي يعاني منها إلا بالوفاق ، وأن الحوار بين مختلف الأطراف هو السبيل إلى الوفاق . وسوف تستمر سورية بالقيام بدورها الأخوي هذا حتى يعود لبنان سليماً معافى يحتل مكانه ضمن أسرته العربية وبين أشقائه العرب .

ولما تبين للدوائر الامبريالية والصهيونية أن سورية عزيزة المنال ، ولا يمكن أن يزعزع صمودها تآمر خارجي ، فكروا في أخذها من الداخل ، وحاكوا المخططات التآمرية لهذه الغاية ، وفتشوا عن احتياطيهم من العملاء، فوجدوا في تنظيم عصابة الإخوان المسلمين المجرمة العميلة ضالتهم المنشودة ، فعمدوا إلى تدريب أفرادها على القيام بمختلف أنواع النشاط

الإجرامي من قتل وتدمير وتخريب ، وأمدوهم بكميات كبيرة من الاسلحة من مختلف الأنواع ، ووضعوا بتصرفهم مبالغ طائلة ، وأمنوا لهم الأوكار في حلب وحماة ودمشق وغيرها من المدن ، ثم اطلقوهم من أوكارهم لتنفيذ المخطط التآمري على الوطـن والمواطنين . فراحوا يعيثون في الأرض فساداً ، يقتلون العامل والفلاح والموظف والمستخدم والجندي والشرطي والطالب والمعلم وأستاذ الجامعة والشيخ والطفل والامرأة ورجل الدين . . ولم تنج فئة من فئات المجتمع من جرائمهم البشعة ، كما راحوا يدمرون المؤسسات الاقتصادية،ويخربون كثيراً من المرافق العامة . . إلا ان جماهير شعبنا كانت لهم بالمرصاد ، فقد تصدت للمؤامرة فأحبطتها ، ولأدواتها الرخيصة الخسيسة فسحقتها وجعلت من المجرمين العملاء أثراً بعـد عين ، ومضت جماهيرنا بقيادة قائد المسيرة تعلي صرح مجدها ، وتتابع عمليات البناء ، وتصنع مستقبلها المنشود .

إزاء ما جد من معطيات بعد انتقال مصر من خنـدق المواجهة إلى خندق التبعية للامبريالية والصهيونية ، وما احدثه ذلك من فراغ في خندق المواجهة العربي ، طرح قائد مسيرة الأمة العربية على دروب النصر والتحرير الرفيق المناضل حافـظ الأسـد مقولة التوازن الاستراتيجي بين سورية والعدو الصهيوني بجوانبه المختلفة من بشرية واقتصادية وسياسية وعسكرية وثقافية وما إليها . . ولقد خطت جماهيرنا المناضلة بقيادته التاريخية الحكيمة والشجاعة خطوات ثابتة على طريق تحقيق هذا الهدف لمواصلة مسيرة النضال التحرري ، والتصدي لأعداء الأمة العربية ومخططاتهم التي يبغون من ورائها الهيمنة على المنطقة العربية والتحكم بمقدراتها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً ، وتحريـر الأراضي العربية المحتلة،واسترجاع الحقوق المغتصبة وفي مقدمتهاالحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني في العودة وفي تقرير المصير وفي إقامة دولته المستقلة فوق أرضه .

★ ★ ★

النضال الوحدوي والتضامن العربي

وأما على صعيد النضال الوحدوي بين الأقطار العربية فإن جميع المحاولات الوحدوية التي شهدتها المنطقة العربية في العقدين الأخيرين كانت سورية الطرف الأساسي فيها بدءاً من اتحاد الجمهوريات العربية بين سورية ومصر وليبيا ، فالتنسيق الوحدوي عام ١٩٧٥ مع الأردن ، فميثاق العمل القومي مع العراق عام ١٩٧٨ ، فالتنسيق الوحدوي مع ليبيا عام ١٩٨٠ . وإذا كانت تلك المحاولات لم تنته إلى ما تطمح إليه جماهيرنا العربية من المحيط إلى الخليج فإن ذلك لم يكن بسببنا ، وإنما كان بسبب الآخرين . هذا وإن عدم اقتران تلك المحاولات والمساعي بالنجاح لا يعني أن قضية الوحدة أصبحت أمراً بعيد المنال .. فإن نضال جماهيرنا الوحدوي نضال مستمر ، وكما قال الرئيس القائد حافظ الأسد : نحن طلاب وحدة ، ولا شرط لنا على من يريد تحقيق الوحدة معنا إلا تحقيق هذه الوحدة .

وإزاء ما انتهى إليه الواقع العربي من حال التردي والتشتت ، وما آل إليه التضامن العربي من زعزعة وانهيار بفعل الدوائر الامبريالية والصهيونية ، فإن سورية كانت دائماً وأبداً تبدي حرصها على تعزيز هذا التضامن ، وتسعى مع الأشقاء العرب لتحقيق أي درجة ممكنة من درجاته ، شريطة أن يكون هذا التضامن تضامناً نضالياً تحررياً يهدف إلى مواجهة مخططات الامبريالية والصهيونية التي ترمي إلى السيطرة على المنطقة العربية والتحكم بمقدراتها ، وترى في هذا التضامن ضرورة ملحة تمليها متطلبات مواجهة أعداء الأمة العربية من امبرياليين وصهاينة ، وبخاصة أن تلك المواجهة تتسم بأنها مواجهة قومية ، وليست مقتصرة على هذا القطر العربي أو ذاك .

★ ★ ★

سنوات خمس وعشرون مرت على الحدث العظيم في الثامن من آذار عام ثلاثة وستين وتسعمائة وألف .. فما أروع الذكرى وما أعظم الحدث. إن ما حفلت به هذه السنون سيكون حافزاً لجماهيرنا الشعبية المناضلة وهي تحتفل بهذه المناسبة الجليلة على بذل مزيد من الجهود ، ودافعاً لها إلى تقديم كل ما لديها من إمكانات وقدرات . فسورية الأسد هي الأمل، وهي القدوة، وهي قلعة الصمود والتصدي وخندق المواجهة الأوحد للدفاع عن الأمة العربية وعزتها وشرفها وكرامتها وحقوقها ، وليس إلاها في الميدان . وستواصل جماهيرنا الشعبية مسيرتها النضالية ، مسيرة البناء والتحرير ، مسيرة التقدم والاشتراكية بقيادة قائد المسيرة بقيادة قائد الثورة الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية . وتؤكد له في هذه المناسبة انها على العهد تمنحه محبتها المطلقة ، وتمحضه مودتها الصادقة ، وتوليه الالتزام التام، وتؤمن بقيادته التاريخية والحكيمة والشجاعة لتحقق كل ما تتطلع إليه في ميادين البناء والتحرير ، وكل ما تصبو إليه من أهداف قومية في آفاق الوحدة والحرية والاشتراكية .

* * *

ثورة آذار
والمنطلقات النظرية

الدكتور أحمد درغام
عضو القيادة القطرية
رئيس مكتب الاعداد القطري

خلف الاستعمار الاوروبي المباشر لوطننا العربي خريطة سياسية لا تقوم على اساس جغرافي او بشري او تاريخي ، وانما تمثل تجزئة للكيان القومي العربي، لم تأخذ بعين الاعتبار سوى المصالح الاستعمارية في نهب ثروات الوطن العربي والهيمنة على مقدراته والحيلولة دون تحرره .

وقد عملت القوى الاستعمارية على ترسيخ الحدود الاقليمية المصطنعة وانهاك الكيانات القطرية والابقاء على تجزئتها وتخلفها من خلال مشاريع عديدة كان من اخطرها زرع الكيان العنصري الصهيوني في قلب الوطن

العربي وسلب اجزاء اخرى وضمها الى دول مجاورة ونشرت القواعد العسكرية على الارض العربية والاساطيل الحربية على شواطئها .. كما غذت الدعوات الانفصالية والاقليمية والطائفية وارادت تحويلها الى اداة لضرب الهدف القومي العربي التحرري .

كما عملت القوى الاستعمارية على التحالف مع القوى الطبقية المستغلة (اقطاع ــ برجوازية ــ رجعية دينية ..) وفتتت الوحدة الوطنية التي ظهرت في سياق معركة الاستقلال وبرز التمايز الطبقي بين القوى المستغلة وجماهير الكادحين ، والخلافات العميقة في النظرة الى المستقبل الوطني والبناء الداخلي بعد انجاز الاستقلال السياسي .

ونتيجة لخضوع الوطن العربي للاحتلال العثماني ومن ثم الى الاحتلال الاستعماري الاوروبي ساد التخلف بمختلف مظاهره الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية .

وجاءت تجربة الوحدة السورية ــ المصرية عام ١٩٥٨ وتعرضها للانتكاس في عام ١٩٦١ لتلقي مزيداً من الاضواء على طبيعة المعركة التي يخوضها شعبنا العربي في هذه المرحلة التاريخية وعلى طبيعة القوى المعادية ، ولتعمق كذلك وعي الجماهير العربية وقواها السياسية ولتكشف جوانب القصور الذاتي والتناقضات الثانوية فيما بينها قياساً الى تناقضاتها الرئيسية مع القوى الاستعمارية والصهيونية والرجعية .

وعلى الرغم من ان جماهير الامة العربية في جميع اقطارها خضعت لمعاناة متشابهة ، وعلى الرغم من ان اوضاعها الاقتصادية ــ الاجتماعية متماثلة الى حد كبير أيضاً ، لم يكن وعي الجماهير العربية لواقعها على درجة واحدة من العمق والشمول ؛ كما لم تكن منطلقاتها ورؤيتها للمستقبل موحدة كذلك ، وهذا امر طبيعي لان الفكر لا يمثل انعكاساً ميكانيكياً للواقع وتحدياته .

لقد كانت ثورة حزبنا في القطر العربي السوري في الثامن من آذار عام ١٩٦٣ ، رداً شاملاً وحاسماً على الواقع العربي ومنطلقاً لحركة قومية تحررية اشتراكية تفردت بأصالتها وبانفتاحها على التراث العالمي وبقدرتها

على تحديد « العام والخاص » في حركة التحرر القومي العربي بوصفها احدى فصائل حركة التحرر العالمية ....

وان كانت « نظرية » البعث القومية ـ الاشتراكية قد اصبحت تشكل الخطوط الفكرية العريضة لمختلف التنظيمات السياسية القومية والتقدمية العربية ، وتلقى التفهم والتأييد من غالبية قوى التقدم والتحرر في العالم ، فان ذلك لم يتم الا بفضل نضال حزبنا وتضحياته ، وسياسته المبدئية الثابتة ..

١ ـ الوحدة العربية :

تشكل الوحدة العربية احد الاهداف الاستراتيجية الثلاثة لحزب البعث العربي الاشتراكي . وهي مع هدفي الحرية والاشتراكية تطرح صورة المجتمع العربي المقبل ، المجتمع العربي الاشتراكي الموحد في اطار الدولة العربية الواحدة .

لقد برزت الوحدة العربية ، التي تجسد ، وحدة الامة العربية ، ووحدة الوطن العربي . كمحصلة لعملية تطور تاريخي طويلة ترجع جذورها الى اكثر من خمسة عشر قرنا ، كونت خلالها اسسا ومرتكزات قوية راسخة ، ثقافية ، اجتماعية ، بشرية ، اقتصادية ، سياسية ، حضارية شكلت القاعدة التي انبثقت منها وحدة الامة العربية ، ووحدة الوطن العربي ، ولعبت الوحدة العربية دورا مؤثرا وفعالا في استمرارية تطور المجتمع العربي ، وعاملا قويا في مواجهة المخططات الاستعمارية الخارجية التي استهدفت السيطرة على الامة العربية والوطن العربي .

فالوحدة العربية كانت دائما حقيقة قائمة وقوة دافقة متجددة عبرت عن نفسها بمظاهر ومضامين مختلفة تتناسب مع طبيعة المرحلة التاريخية القائمة ، ومع نوعية التحديات التي تواجهها في اطار عملية التطور التاريخي العام للمجتمع العربي . ومنذ بداية القرن العشرين وكنتيجة لضخامة الهجمة الاستعمارية ، وتعدد مصادرها ، وتباين اساليبها برزت الوحدة العربية اداة فعالة في النضال ضد المخططات الاستعمارية المختلفة ، ووسيلة لجمع الامة العربية وتنظيم قوتها .

لقد اعتبر حزبنا ان الوحدة العربية ليست نظرية بحاجة الى اثبات بل حقيقة تؤكدها وقائع التاريخ وحقائق الجغرافيا ، وواقع يحرك اعماق الجماهير العربية من المحيط الى الخليج ورأى ان الامر المهم هو « تحديد المضمون التحرري والاجتماعي للحركة القومية العربية ثم للوحدة العربية باعتبارها الاطار العملي للقومية العربية » .

ان فكرة الوحدة العربية حقيقة تاريخية قائمة وموجودة بشكل فعلي ، تستند على مجموعة من الخصائص والصفات التي ترسخت عبر مراحل تاريخية سابقة مثل الاصل الواحد ، اللغة الواحدة ، المصالح المشتركة ، التاريخ الواحد ، وتجسدت هذه الخصائص والصفات في حيوية الامة وابداعها في نهضتها وتقدمها ، في قابليتها على التطور والتجدد والانبعاث في قدرتها على مواجهة التحديات والاخطار المختلفة واحتوائها .

وبذلك ان تحقيق الوحدة العربية يعد نفيا للمظاهر الطارئة التي فرضت في ظروف تاريخية معينة على الامة العربية ، ويشكل عودة للوضع الطبيعي للامة العربية والوطن العربي ، وجاء في الدستور : « العرب امة واحدة لها حقها الطبيعي في ان تحيا في دولة واحدة وان تكون حرة في توجيه مقدراتها . لهذا فان حزب البعث العربي الاشتراكي يعتبر الوطن العربي وحدة سياسية اقتصادية ثقافية . وان الوطن العربي هو للعرب ولهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدراته » .

* لقد كان حزبنا اول حركة عربية كشفت المحتوى الحقيقي للقومية في الوطن العربي وفي بلدان آسيا وافريقيا ، حيث اشارت وثائق الحزب الى « ان العرب لا يطمحون الا لجمع شملهم وتوحيد اقطارهم ورفع نير الاجنبي عنهم وان القومية في آسيا وافريقيا اداة تحرر من الاستعمار ومن كل استغلال داخلي . .وبالتالي فان المعنى الايجابي لها كان التضامن المستمر مع الحركات التحررية في العالم .

* كما كان حزبنا اول حركة ربطت بين النضال القومي والنضال الاشتراكي وأكد تلازمهما ، وهذا ما حول نضال الحركة القومية من مجرد شعار بورجوازي تقليدي الى نضال جماهيري شعبي ... فهنالك علاقة وارتباط بين النضال من أجل الوحدة العربية ، والنضال من اجل تحقيق الاشتراكية ، فالنضال الوحدوي يحمل في اطاره مضمونا وبعدا اشتراكيا ؛ وهو قوة تحررية ايضا . وان تحقيق الاشتراكية يحمل في اطاره تحقيق الوحدة العربية ايضا وعوامل حرية الامة العربية. اذن تبرز هنا مظاهر الارتباط والتكامل بين الوحدة والاشتراكية ، ومظاهر الارتباط والتكامل تقوم على الاسس التالية : ان اعداء الوحدة داخليا وخارجيا هم أعداء الاشتراكية سواء أكان الاستعمار أم البرجوازية المحلية والاقطاع .

ومصالح الاستعمار ، والاقطاع والبرجوازية قامت على قاعدة التجزئة التي تمثلها « الدول الاقليمية » وهذه بدورها ظهرت على حساب « الوحدة العربية » وهي بالتالي التعارض والتناقض مع « العمل والنضال الوحدوي » لان قيام الوحدة يحمل في اطاره نقيضا لمظاهر التجزئة ، وتصفية لرموزها من الاستعمار والاقطاع والبرجوازية وبالتالي تصفية القوى المناهضة لقيام الاشتراكية .

وقد اكد التطور الواقعي للنضال العربي عبر العقود الخمسة الاخيرة الطابع الاشتراكي والشعبي والثوري لمعركة الوحدة العربية ، اذا اصطدم النضال القومي العربي بالقوى الاستعمارية والصهيونية ، وبالاقطاع والبرجوازية المحلية ...

* ولقد اعتبر الحزب الوحدة العربية عاملا هاما في تعميق كل تغيير حقيقي في المجتمع العربي لان الحرية التي يسعى اليها كل قطر عربي على حدة لا يمكن ان تبلغ من العمق والشمول ما تبلغه الحرية التي تحققها الامة العربية في وحدتها ، وان الوحدة ضرورة مباشرة في معركة الوجود العربي ضد الاستعمار بشكليه القديم والحديث ، انها الطريق

الى استعادة الاجزاء السليبة من الوطن العربي وتـدمير الاحتكارات الاستعمارية ...

« كما ان الاساس المادي للاشتراكية يأخذ كل مداه التطبيقي عندما يكون مجاله الوطن العربي كوحدة اقتصادية وبشرية .. »

« فالوحدة ليست خلاصا قوميا فحسب ، بل هي بالنتيجة خلاص اقتصادي واجتماعي وقضاء على التخلف وسير سريع للحاق بركب التاريخ .. »

واوضح الحزب انه لكي نضمن للوحدة الشروط الموضوعية لانطلاقة صحيحة لابد ان تنبثق عن جماهير واعيـة مكونة تكوينـا سياسـيا ، مسؤولة ومنظمة تنظيما محكما ، وبما ان روح الديمقراطية هي الايمان بالجماهير ، لذا فان الكفاح الوحدوي هو كفاح ديمقراطي اشتراكي .

٢ ــ الحـريـة :

حدد الحزب الحرية بانها تعني التحرر الكامل السياسي والاقتصادي من شتى اشكال السيطرة الاستعمارية ، والتحرر كذلك مـن جميـع اشكال استغلال الانسـان للانسان ...

ووضع الحزب النضال التحرري العربي ضمن اطاره الانساني ، واعتبر المعسكر الاشتراكي قوة ايجابية فعالة في النضال ضد الاستعمار والتزم سياسة مبدئية وثورية تقوم على دعم حركات التحرر القومي لجميع الشعوب بالمناضلة ضد الاستعمار .

واكد الحزب بوضوح ان « الحرية السـياسية ليست مفهوما مجردا مطلقا ، بل هي دائما حرية ملموسة ذات مضمون اجتماعي محدد منحت لطبقة ومنعت بشكل او بآخر عن اخرى .. »

واذا كان مفهوم الديمقراطية الشعبية (الذي يدعو اليه حزبنا) ينطوي على توفير ديمقراطية واسعة للجماهير الشعبية ، ويؤكد في الوقت نفسه ضرورة عزل القوى الطبقية والسياسية المعادية للثورة الاشتراكية ...

وأوضح الحزب أن « البرلمانية » في وطننا العربي عكست الوضع الاجتماعي المتخلف شبه الاقطاعي والعشائري والطائفي وأداة في يد البرجوازية لضرب مصالح الجماهير الشعبية .

ان الديمقراطية الثورية التي يناضل الحزب من أجلها لا يمكن ان تأخذ كل مداها التطبيقي الفعال ، الا اذا قامت على تنظيم شعبي طلائعي يؤمن أوسع وأعمق شكل لديمقراطية الجماهير . وان الطليعة القومية الاشتراكية هي وحدها التي تؤمن التوازن والانسجام بين مركزية التنظيم الشعبي وفعاليته وبين ديمقراطية التنظيم التي يفترضها الطابع الشعبي للثورة .

※ وأولى الحزب عناية خاصة للتنظيم السياسي الثوري ، بوصفه اداة في احداث التحولات - الاقتصادية - الاجتماعية الاشتراكية . وحدد بنيته الطبقية وآليات عمله واطره التنظيمية ، والشروط الموضوعية التي يجب أن تتوافر فيه ليكون جديرا ومؤهلا لقيادة الاغلبية الساحقة من جماهير الشعب وتأمين التفافها الطوعي حوله ، وتحصينه ضد ظواهر التخلف والانحراف التي قد تتسرب اليه من الواقع البورجوازي - الاقطاعي - العشائري وضد مختلف مظاهر البيروقراطية .

٣ - الاشتراكية :

على الرغم من أن « بعض المنطلقات النظرية » التي اقرها المؤتمر القومي السادس للحزب المنعقد في تشرين الاول من عام ١٩٦٣ اشارت الى ضرورة تعميق وتوضيح « الطريق العربي الى الاشتراكية » عن

طريق تحليل التكوين الاقتصادي والطبقي للمجتمع العربي ، فقد اشارت بوضوح الى « أن الاعتراف بالملكية الفردية بشكلها المطلق هو ضرب من المفهوم البورجوازي الصغير ، لان المفهوم الاشتراكي العلمي يعتبر العمل الانساني المصدر الوحيد للقيمة ، لذا فان الملكية الفردية اذا تعدت نطاق الاستعمال الشخصي لابد ان تكون مستغلة .. »

* واشارت « **المنطلقات النظرية** » **الى أن « الاشتراكية تهدف الى اقامة نظام اجتماعي جديد يخلق ظروفا موضوعية ، اقتصادية واجتماعية** وفكرية وسياسية جديدة تعتق الانسان من جميع انواع الاستغلال والتسلط والجمود وتتيح له الفرصة كي يصبح انسانا **حرا** .. »

« ان الوصول الى تحقيق الاشتراكية يقتضي تحويل ملكية وسائل الانتاج الخاصة الى ملكية عامة للشعب بأسره ، ويلغي الحاجة الى دور الوسيط الرأسمالي بصورة نهائية ويجعل دخل الفرد يرتبط مباشرة بعمله وكفاءته ويصهر سائر الطبقات في بوتقة واحدة .

* واوضح الحزب ان الاشتراكية في البلدان المتخلفة ـ ومنها وطننا العربي ـ تلبي هدفين بآن واحد :

ـ الاول هو الغاء الاستغلال كليا ، والثاني : هو القضاء على التخلف الموروث لهذه البلدان واللحاق بالبلدان الصناعية المتقدمة .. لان النظام الاشتراكي هو وحده القادر على تجنيد الشعب بجميع طاقاته المادية والبشرية لتحقيق التقدم العلمي المنشود في عصر التقدم السريع للعلم والتكنيك .

بعد مرور ما يزيد عن اربعة عقود من الزمن على تأسيس حزبنا ، وبعد مرور ربع قرن على ثورته في القطر العربي السوري ثورة الثامن من آذار وفي الوقت الذي ندعو فيه باستمرار الى تطوير وتعميق نظريتنا على ضوء تجربتنا وتجارب الشعوب ، ومن خلال التفاعل مع تراثنا

وتراث البشرية التقدمي . نؤكد أن منطلقات حزبنا وادبياته تشكل أساساً نظرياً متيناً ، علينا أن نجسده في سلوكنا اليومي ، وأن نطوره باستمرار لا سيما وأن التحديات والاخطار التي كانت ثورة حزبنا رداً عليها ما تزال قائمة بل ومتنامية ، سواء على صعيد تعاظم اخطار العدوان الخارجي وتوسع الكيان العنصري الصهيوني على حساب الارض العربية . او على صعيد تفاقم الازمات الاقتصادية الاجتماعية واستمرار حالة التبعية لمعظم اقطار الوطن العربي الى القوى الامبريالية العالمية الى هذا الحد أو ذاك .

تحية لثورة الثامن من آذار في عيدها الخامس والعشرون .

المجد والخلود لشهداء ثورة الثامن من آذار ولشهداء البعث العربي الاشتراكي .

وعهداً على متابعة مسيرة الثورة بقيادة الرفيق المناضل حافظ الاسد حتى تتحقق أهدافنا الكبرى في الوحدة والحرية والاشتراكية .

* * *

عيـــد ثورة ومأثرة قائـد

الدكتورة نجاح العطار
وزيـرة الثقافـة

حين تكون الثورة ، يكون الزمن في لحظة انعطاف . انه المفترق ، بين عهدين ، بين تاريخين ، بين حقيقتين ، وهذا المفترق ، في لحظة انفجار الثورة ، يصبح شعلة في يد مارد، تضيء ، تومىء ، تشير الى الدرب الجديدة ، الدرب التي تاخذ بالناس الى مشارف الفجر ، حيث السحب الحمر ، شارة نارية ، تتوهج ، تتألق ، وتوشح الدنيا بأرجوانية أين منها شقائق النعمان ، في قاني لونها الذي الى نجيع الفداء يرقى .

ذلك ان الثورة ، في موعدها مع التاريخ ، هي قمة تاريخ ، ينهار ما قبلها شلوا محطما ، وينهض ما بعدها صرحا باذخا ، ويتمجد الكون ، بمجد الجديد الذي يولد ، الجديد الذي له الحياة ، لأنه مكتوب أن الحياة تعطى للذين يستولدونها من رحم الآلام ، ومن جراح الأضاحي ، ومن قرابين الدم المتصاعد نفورا الى السماء ، اذ هي ، في بحر زرقتها ، يم يمخر عبابه الف شراع أبيض ، ويتنور في فضائه الف نجم أحمر ، شهد الوقيعة بين الذين ذرت قشورهم رياح العاصفة ، ومشت على آثارهم كما تمشي على الاغصان اليابسة ، وبين الذين برعمت بهم شجرة المستقبل واورقت ، وافاءت عليهم من نعمائها ظلا عميما .

لكن الثورة ، بما هي كائن حي ، عليها ان تعطي ، مثله ، مصداقيتها من خلال نموها ، ومن خلال ذهابها في الارض جذورا ، وفي الاعالي جذوعا ، كي تترسخ ، وتهزم عاديات المصاعب، وإحن التجارب ، وتشرع في البناء ، ثم البناء ، ثم البناء ، في كل الحقول ، وكل المجالات .

لقد كان الثامن من آذار ، هو ذلك المنعطف بين قديم وجديد ، وذلك المفترق بين ظلم وعدالة ، وذلك الوثوب في ارجوحة الزمن ، لتقبض الثورة على الآتي ، وتقيم فيه نقيض ما كان في الماضي ، فتبدل الاشياء تبديلا ، وتغير المصائر تغييرا ، وتفتح صفحة مشرقة في سجل فضي عمره الآن خمسة وعشرون عاما ، وهو ، في اندفاعته الثورية الى امام ، يعطي ما ازدادت العطايا ، ويزهر ما اشتهت الازاهر ، ويثمر ما انعقد الثمر انجازات ، ويطرح ، كالكرم النضير ، عناقيد هي تحولات كبرى ، اقمناها ، واشدناها ، وارسيناها ، وتحملنا لاجلها عداوة الاعداء ، لكننا بنسغ ثورة آذار ، وامتدادها في شرايين الحركة التصحيحية ، وبقيادة زعيم عربي كبير كبير ، وقائد فذ وملهم ، هو الرئيس حافظ الاسد ، جبهنا هجمة الاعداء ، ورددنا دروعهم وبوارجهم ، وجعلنا الطريق التي جاءت بهم تميد من تحتهم ، والمياه التي حملتهم الينا تعود بهم مدحورين من حيث جاؤوا .

ونفاخر . ومن حقنا ان نفاخر ، ففي آذار انفجرت الثورة ، وفي تشرين تجددت ، صارت ثورة في حضن الثورة ، او ثورة ذات خط ثوري ، لا التواء فيه ، ولا تردد ، ولا وهن ، ولا كبوة ، لانه ، في انطلاقته

الجبارة ، حسب برنامجه الضخم ، استعداد ذاته ، وصحته ، وقواته ، ومارس تأثيره عربيا ودوليا ، كأقوى ما تكون الممارسة ، بعد أن صحح الوضع الداخلي كأفضل ما يكون التصحيح ، وأشاع الطمأنينة والحب وروح المبادرة والبذل والعطاء ، ولقن في حرب تشرين اسرائيل ومن ورائها امريكا ، درسا لا احسب انه يدخل لديهما في باب النسيان ابدا .

ويسالونك ، ونحن في عيد ثوري : عن الوحدة العربية ، فقل هي رسالتنا الثورية . انها في عصبنا نبض ، وفي جسمنا روح ، وفي يراعتنا مداد ، وفي نضالنا أساس ، وفي عملنا ، لأجلها ، كالنهر الجاري ، وهذا النهر ، في آتي هديره ، سوف يفيض تضامنا ووحدة ، وسينشر على ضفتيه خيرا كثيرا ، وارجا وفيرا ، جاعلا من الاقطار العربية وطنا واحدا ، ومن دولها دولة واحدة ، ومن تخومها مزقا ، تنهار معها السدود والقيود ، وتنتهي التجزئة البغيضة ، والفرقة الاليمة ، التي جعلت من بلداننا جزرا متباعدة ، متنافرة ، متحاربة ، ما دام ثمة مناضلون وحدويون ، في طليعتهم الرئيس الاسد ، الذي يرى في هذه الوحدة قدس الاقداس ، وفي صيرورتها قدر الاقدار ، وفي نشدانها عملا قوميا دؤوبا موصولا الى ان يقيض لها ان تتحقق ، وستتحقق باذن الله .

ووسط كل هذه الضغوط التي تمارس علينا ، والمشاريع المعادية التي تخطط لنا ، فان الربان الاسد يبحر بنا في سفينة قيادته نحو شاطىء السلامة ، لانه هو ، في انضفار عزيمته ، وقوة شكيمته ، وحكمة ريادته ، يعرف كيف يجبه العاصفة ، وكيف يصد الريح ويسوقها امامه ، وكيف يقلب الاشياء الى اضدادها ، ويعطي من ذاته ، ومن شعبه ، ومن جيشه ، حماية للحدود ، واندفاعة للمقاومة ، وزخما للانتفاضة ، هذه التي من وهج النضال قبست ، وفي تاريخه زادت ، ومن ارضنا العربية انتزعت حجارتها التي صارت سلاحا ولا أمضى ، ومقلاعا ولا أقوى ، ورمية هي الفتكة البكر التي اضطربت لها الدنيا ، ودهش العالم ، وذهل السياسيون والمراقبون ، وذعر المحتلون الاسرائيليون ، وعجزوا ، حتى مع تطاول الايام ، أن يطامنوا من مقاومة اخوتنا العرب في الضفة والقطاع والجولان ، وأن يخمدوا ثورتهم التي يتاجج لهيبها ويستشري ،

وينتفض، ويسري سريان النار في هشيم لا يعصمه من الاحتراق عاصم، اليوم وغداً وبعده، وعلى مدى الايام والاعوام، الى ان يجلو المحتلون، ويرحل المستعمرون المستوطنون، وتتحرر الارض وتستعاد الحقوق.

ذلك انه ما من احد يشرب البحر بكوب، وما من احد يقطع الجبل بسكين، وما من احد يمحو التاريخ باصبع، وقد قال اهلنا في الاراضي العربية المحتلة لا للاحتلال، وسمعتهم تل ابيب، فقعقع سلاحها، ولكنه جوبه بسلاح من معدن اسمى، وادمى، سلاح دخل التاريخ من بابه الابهى، فصار الحجر خنجراً وبندقية ومدفعاً وصاروخاً، وارتفعت غابات الايدي ترجم، وتضرب، وتتحدى، وراحت الاعلام العربية تخفق اعلى فاعلى، والحجارة تتكلم لغتها، والخطا لغتها، والغضب لغته، والكائنات ينبعث فيها ذلك الوقد المقدس الذي هو قبس من نور الحق.

وبتواضع نقول، لولا سورية ما كان ذلك ليكون، ولولا ثورة آذار ما كان ذلك ليتحقق، ولولا الحركة التصحيحية ما كان ذلك الكمون الثوري الى تفجر، وعلى هذه الحدة من التفجر، لانه لولا هذه الحركة وقيادتها الثورية وصمودها وتصديها، لكانت القضية العربية قد صفيت، والقضية الفلسطينية قد وئدت «واذا الموءودة سئلت، باي ذنب قتلت» فقل بذنب الردة، هذه التي كانت تنزع الى وضع العرب في قبضة كامب ديفيد، اي في قبضة امريكا واسرائيل، وكان السلام الذي ننشده قد صار استسلاماً على ايدي المنحرفين والمتخاذلين معاً.

هكذا نقرر ما هو واقع وبحكم الواقع. وهكذا نعتبر الانتفاضة انتفاضتنا، نفديها، ونغليها، ونمدها بالعون، ما استطعنا الى هذا العون سبيلاً وتوصيلاً، ويعرف الاخوة المنتفضون حقيقتنا كما نعرف حقيقتهم، ونتعلم منهم كما تعلموا منا، ونرى الى معركتهم التي يخوضونها في الداخل، على انها المعركة الصح، في الموقع الصح، وهذا ما ينبغي أن ندركه، ونمارسه، ونجعله نهجاً لنا، وخط مجابهة من خطوطنا، فالشعوب التي قاومت حتى انتصرت، كانت مقاومتها داخل أراضيها، وفي حضن محتليها، وتحت أنوفهم، وضدحديدهم ونارهم.

وها هي الانتفاضة المباركة ، يفعـل شعبها العربي ما فعلته الشعوب الاخرى ، وينقل معركته الى ارضه ، ويدعو ، ببطولاته ، الذين هم في الخارج ، الى خوض المعركة في الداخل ، لان مكانها هناك ، ولان تاثيرها هناك ، وانتصارها هناك ايضا .

ان السيف أصدق إنباء من الكتب .. والسيف في ايدي اهلنا حجر ، والحجر يقاوم الدبابة ، فمن الذي قال : العين لا تقاوم المخرز ؟ اسرائيل ! يا اسرائيل ، يا بؤرة العدوان ، هل جاءك الجواب العربي الآن ؟ انت رهن ارادتنا كنت ، وما زلت ، وستبقين ، وارادتنا الى تصلب ، وبقاؤك الى زوال ، نقولها بأعلى الصوت ، وليسجل التاريخ قولتنا ، فاطارات السيارات ، على دروب النضال ، حواجز تشتعل ، واهلنا ، هناك ، يضرمونها وانت عاجزة ، وفي وسع شامير أن ينتحر ، لكنه لا يستطيع اخماد النار بالزيت ، فالارادة اقوى ، وحب الوطن اقوى ، وحب الارض اقوى ، وما عداها هباء ، وقد كتب على المحتل ان تلعنه الارض والحجر ، والشجر ، و « باصقات اللهب » فاين المستقر ، اين المستقر ، اين المستقر ؟.

اربعـون ونيف من الاعوام ، واربع حروب ، ودماء ، وسجون ، ومعتقلات .. ثم ماذا ؟ كأننا ما نزال في البداية ، والبداية تصنع النهاية ، وقل ان نهاية الاحتلال هي في الحتم من الامور ، لان الاستعمار الاستيطاني باطل ، والباطل سيظل باطلا ، وسيزهق زهقا ، وهذه مسلمة لا شك فيها ولا ريب .

ويا ثورة آذار ، اننا مع عيدك الفضي على موعد اليوم ، وهو موعد مع المستقبل ، ومن يكن مستقبليا ، عن علم وكفاح ، فليس من قوة تستطيع ان تحول بينه وبين ادراك الهدف . ونحن ، فوق هذا ، نثق بالتاريخ ، وبدروسه ، وعبره ، وقوانينه ، ونؤمن بخط سيره الذي لا يرجع الى وراء قط .

ان اجمل التاريخ ما كان غدا ، واجمل غد ما كان مكافأة للمناضلين ، وحركة النضال تتحدد بعدالة قضيتها وعظمة قيادتها ، وقدرتها على الاستبصار ، ورصد الغيب ، ورؤية بقعة الضوء في قلب الظلمة . وقضيتنا ، كما يشهد نصف قرن من النضال ، عادلة ، وقيادة الرئيس الأسد ، كما اثبتت الاعوام الطوال ، عظيمة وبصيرة، ورؤيتها السياسية، في النظرية والممارسة ، غاية في الحذق والصواب ، وتحركها العربي والدولي يعطيها الحق في أن تقول ان المكانة التي بلغتها سورية غاية في الرفعة ، غاية في الهيبة ، غاية في الاحترام ، وقوتها العسكرية ، مع موازنة ميزانها الاستراتيجي ، تجعل اعداءها يفكرون كثيرا وطويلا قبل اي تفجير للوضع ضدها او من حولها ، ومحال ان يحولوا بينها وبين تحقيق اهدافها التي يعرفونها جيدا ، ويدركون في اعماقهم انها ستبلغها مهما تطل المقاومة ، ومهما ينأ الزمن ، ذلك اننا لهم بالمرصاد ، وشعبنا لهم في وميض البرق ، وقدراتنا كاملة وموفورة ، ووحدتنا الوطنية الداخلية متراصة ، ولا امل في خلخلتها ، ولا امل ، بأي شكل ، أن يجد الاعداء فيها ثغرة او شبه ثغرة ، مهما يحاولوا ويطاولوا ، ويترقبوا ، وينتظروا .

وبعد .. ان اعظم ما في عصرنا انه عصر الثورات ، عصر الشعوب التي ثارت على مستعمريها ، فتحررت وطنيا وقوميا ، وثارت على مستغليها فتحررت اقتصاديا واجتماعيا ، وثارت على أوضاعها البالية فتجددت عقلا وروحا ومفاهيم ، ومن اجل ذلك كان للثورة ، لغة ، هذا الالق ، وكان لها ، نظرية ، هذا الشمول ، ثم كان لها ، في الواقع ، هذا الاثر ، وفي سمع الدنيا، هذا الدوي .

وثورة آذار هي من ثورات عصرنا على نسب ، وقد اعطت مصداقيتها في قدرتها على الفعل ، وعلى البناء ، وعلى التجدد ، وعلى الاستمرار ،

ونحن اذ نحتفل بربع قرن مضى على قيامها ، فانما نحتفل بربع قرن من الانجاز والكفاح ، واقتحم الصعاب ، لذلك نضيء لها ، في عيدها ، شموعا هي للانارة والاستنارة ، وهي للفرح ، والزهو ، وهي للاستعداد لمواصلة المسيرة ، بعزيمة لا تلين ، واندفاعة لا ترد .

ان قائد تشرين هو ، في النسيج الثوري ، قائد آذار ، فقد كان المناضل والمصلح ، والمنقذ ، وكان في آذار ، مثله في تشرين ، في قلب الاحداث وفي قيادتها ، واثبت أنه رجل الدولة الكبير ، الذي بمثله تبنى الدول الكبرى ، وكان بطل كل ساعة ، في حين يكون الرجال ، وحتى المشاهير منهم ، ابطال ساعة ، وكان بطل حرب تشرين ، كما كان بطل مرحلة ما بعد تشرين ، وكان بطل الصمود ، وبطل مقاومة كامب ديفيد ، والحلول الجزئية والانفرادية ، وكان ابدا مخلصا للشعب الذي انجبه ، وللأمة التي خرج من صفوفها ، وللوطن العربي الكبير الذي يهب لنجدة اي قطر من اقطاره ، من منطلق ايمانه وفكره القوميين الصادقين .

ولم يكن بارا بالمناضلين الاحياء فقط ، بل كان حفيا بالشهداء منهم ايضا ، وقد كرم هؤلاء الشهداء تكرمة جليلة ، حتى تجاوز تكريمه معنى التكريم في ذاته ، واتخذ معنى اكبر ، بتوجهه الى رمزين متحدين ، بينهما صلـة قربى ووشيجة رحم ، لانهما الى الشهادة والبطولة ينتميان ، فالشهادة ذروة البطولة ، والبطولة فداء على طريق الشهادة ، وكلاهما تعبير عن نكران الذات ، وعن التضحية ، وعن ايثار الموت في سبيل الحياة ، الى الحد الذي يصير معه الفناء سبيلا الى البقاء ، لان الشهادة والبطولة هما في التقابل وجهان لوجود اعظم ، هو وجود الامة ، هذه التي لن يكون لها بقاء ، اذا لم يفن ابناؤها من اجل بقائها .

ما ازهى العيد ، اذ هو عيد ثورة ، في محرابها تترتل رائعات باقيات للعزة والمجد ، وفيه ترتفع الى الاعالي ، خلجات نفوس ثائرة ، عاهدت فوفت ، وآمنت فصدقت ايمانا وعملا .

وما أعظم قائدا ، هو ابن آذار البار ، وابن تشرين البار ، وابن الثورة البار ، مذ كان في ذاته ثورة ، وفي عنفوانه ثورة ، وفي عطائه ثورة ، أمدها بالنسغ المحيي من قلبه وروحه وهناءته ، وسار بها مصعدا الى مطالع الأفلاك ، حتى صدق فيه حدس البدوي حين قال :

ما للسفينة لم ترفع مراسيها ألم تهيء لها الأقدار ربانا
شقي العواصف والظلماء جارية باسم الجزيرة مجرانا ومرسانا
ضمي الأعاريب من بدو ومن حضر اني لألمح خلف الغيم طوفانا
يا من يدل علينا في كتائبه نظار تطلع على الدنيا سرايانا

وها قد طلعت على الدنيا سرايانا ، وقيض الله لسفينة هذه الأمة ربانا وشجاعا ، كان قدوة في حكمته ، وقدوة في شجاعته ، وقدوة في أبوته وطيبته الماجدتين والعظيمتين على السواء .

★ ★ ★

ثلاثية الذئاب

"مقطع من رواية"

محمد ابراهيم العلي
قائد الجيش الشعبي

سمع صوت انفجار ضخم في القطاع الشمالي، وعلى اثره انهوا السهرة وعادوا الى موقع السرية. شق لمعان قذيفة مضيئة من قنبلة هاون في القطاع الشمالي، وعاد قائد السرية في الساعة العاشرة الى السرية وتفقد الحراسة، لم يكن المرشح احمد موجودا سأل عنه وعلم انه خرج مع الكمين، وكذلك المرشح الآخر كان في اجازة والمساعد والرقيب الأول.

عاد الى خيمته ، ونظر الى برقيات الفوج ، وعلق على برقيات الابقار قائلا : هل هربت ؟ معقول هذا يجب أن نتصل بالحاصل العسكري ، كان الرقيب محمد واقفا بحالة الاستعداد فامره بالجلوس وسأله عن دراسته وتحضيره هذه السنة ، وشجعه على الدراسة . قال له :

— أهم شيء يا محمد أن تنجح . ان لا تضيع الوقت هنا وهناك ، تدرس في كل وقت . كان يتكلم هادئا فهو لم يشرب الكحول بكثرة كعادته ، رائحة الكحول تخرج من انفاسه لكنه لم يكن ثملا مع ذلك بدا يكيل الشتائم لقيادة الجبهة على برقيات الابقار . ثم اتصل بالهاتف مع الحاصل العسكري . كان قائد السرية الثالثة مجازا ، وجد المساعد، وسأله عن أوضاع السرية وحذره قائلا : اخشى أن يكون العدو اجرى لكم خداعا بالابقار يجب أن تكونوا يقظين . كان قلقا لم يعلق على الرقيب محمد وصرخ باحد العساكر الذين يعملون مع رقيب أول السرية ، وقال : اغل شاي . ثم كال شتائم لقيادة الجبهة . اتهمهم بالكسل ، وتحدث بالهاتف مع رئيس اركان الفوج حديثا طويلا عن أوضاع الفوج وقلة المشمعات ومشاكل التموين في السرية ، ومشكلة المسدسات الفاسدة التي سحبت ولم تعوض . كان يتحدث وقد خلع نطاقه والقاه مع المسدس على سريره الفردي . كان الكاز قد خف في القنديل فاسرع الرقيب محمد وملأه كازا ، واحضر الجندي ابريق الشاي . لم تكن هناك كؤوس زجاجية فاحضر الكارات التي يشرب بها الجنود احضر ثلاثة منها قائلا : ان رقيب أول السرية اقفل على الكاسات ، ورغم انه كان يتحدث مع قائد الفوج ، شتم رقيب اول السرية قائلا : رقيب أول حمار . هل من المعقول ان نبقى بدون شاي حتى يعود وتابع قائد السرية الحديث مع رئيس اركان الفوج ، حول الابقار التي اجتازت النهر بعد الظهر شمال الحاصل العسكري ، كان يتشنج وهو يستمع على الهاتف وبعد ان انهى المكالمة قال رئيس أركان الفوج حمار ، يقول الريح ساقتها ؟ ! الريح تسوق الابقار الى شرقي النهر هل هذا معقول اغلب الجنود والمجندين كانوا رعاة لم يصدقوا ما يقوله رئيس اركان الفوج . شرب الشاي بكار المجندين . كان الرقيب

محمد يتابع حركاته ، رغم أنه لم يطمئن اه ، ولكن بدا له رجلا طيبا في حقيقته وان كان لسانه بذيئا تحدث عن الفقراء والاغنياء في حلب ،وشتم العدالة وقال : هناك من يعيش في القصور ولا يعرف كيف ينفق ماله ، ونحن نعيش مثل كلاب الرعاة من اجل ان نحرس الذين في القصور .

لبس نطاقه ثانية ، وممطره ، وخرج مـن الخيمة قائلا : اتبعني رقيب محمد .

عرج على جماعة الهاون الصغير ، وتفقد الرشاش وجاهزيته . سار في الخنادق وتفقد الرشاشات وجاهزية المناوبين .

عبر في منطقة الرعاة وتحدث مـع الرقيب محمد قائلا : لا بد ان فتياتهم جميلات . لم يسمح له مركزه بالاحتكاك الدائم معهم ، ومع ذلك تردد في الدخول الى احد البيوت وعاد الى السرية قائلا : الوقت متأخر . سمع صوت انفجارات متلاحقة في القطاع الشمالي ، من موقع معاد وقذيفة مضيئة، كان اللمعان خافتا لان الغيوم تحجب حتى ضوءالقذيفة، فتبدو الاضاءة وهجا احمر مكتوما . عاد الى خيمته مع الرقيب محمد ، لم ينم . شربا سوية الشاي ، سأل عن اقطاعيي حماه وأصحاب الخانات المرابين وقال : هؤلاء أسوأ منهم . كان المطر يقرع على الخيمة . وحدث انفجار ضخم في القطاع الجنوبي على الحاصل العسكري . خرجا مـن الخيمة ونزلا في الخندق ، اعطى الاوامر باحتلال موقع السرية وتجهيز الرشاش الثقيل وشقت الظلمة بضوء احمر من القنائف المضيئة المتلاحقة. كانت على طول الساحل الشرقي لبحيرة طبريا. وعلى الحاصل العسكري.

كان النقيب بكري متوتـر الاعصاب ، تحدث مع مركـز الحاصل العسكري . ورد المساعد قائلا : نقصف بالمدفعية والسرية احتلت الخنادق ولكن القصف مركز وكثيف ، وقع بعض الجرحى ، ويوجد قتيل بعد الدقائق الاولى من رشقة المدفعية الاولى . لكن العدو ركز قصفه على كل المخافر على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا وخاصـة على الدوكا ، والكرسي ، وسكوفيا . كانت تسقط في كل ثانية قذيفـة وبشكل متواصـل ، فبدت السماء مشتعلة واضيئت أرض المعركـة بأشعة مختلفة الالوان .

عند بداية الرشقة عاد المساعد ١ علي من قرية البطيحة واعلم بالهاتف الحاصل العسكري في علمين عن ذهابه ولم يجتز الا بضعة كيلو مترات حتى وجد الطريق مقطوعا بواسطة كمين معاد ، واخذ اسيرا مع السائق، وافاد مخفر المشنوق ان العدو يقصف مخفر تل احمر بالهاون .

كان مقسم السرية ينقل البرقيات الى قائد السرية وهو فيموقعه لكنه بعد فترة خرج من الخندق ودخل المقسم وأخذ يتصل برئيس اركان الفوج في السرية الاولى ، والسرية الثالثة بالحاصل العسكري .

كان القصف شديدا ، حتى كلاب الرعاة نبحت في بداية القصف ولكن الامور تطورت بشكل أسرع من المتوقع فلقد كدس العدو كميات كبيرة من قذائف المدفعية . آلاف الطلقات صبت على طول الساحل الشرقي لبحيرة طبريا .

انقطع الاتصال مع مخفر تل احمر من الرشقة الاولى، ذات يوم تحدث الجندي نويصر عن قوة هذا المخفر . فيه رشاش واحد ثقيل مع رقيب وجنديين أحدهما نويصر . يجب أن يناموا ثلاثتهم خلف هذا الرشاش وماذا بوسعه ان يعمل ومهمته ان يمنع اي عبور وتغطية الفاصل بين السرية الاولى والسرية الثالثة ، ومخفر المشنوق يغطي الفاصل بين الثالثة والثانية .

كانت بداية القصف الشديد متوجهة الى الساحل الشرقي ويبدو ان زوارق حربية اشتركت في القصف المباشر على تلك المخافر .

وصلت برقية من قيادة الجبهة تفيد بأن العدو يقصف المخافر الامامية في القطاع الجنوبي ، لاخذ الحيطة والحذر ، واطلقت بعض الرشقات على الحاصل العسكري ، لاخذ العلم .

استمر القصف دون توقف وبكثافة اعلى من البداية . ضرب النقيب بكري بقبضته على الطاولة التي عليها المقسم ، واردف شاتما الاركان وقيادة الجبهة ، وقال غاضبا : ماذا يعملون ؟ ماذا تعمل الاركان ؟ انهم

كذا ... وكذا ... الخ وتحدث مع رئيس اركان الفوج سائلا : ماذا يعمل اذا هوجم الحاصل العسكري ؟

كان وجه عامل المقسم اصفر مربدا شبيها بالاموات ، وعلى ضوء القنديل الهوائي ، الذي يتراقص ضوءه بدا وجهه حزينا . وكذلك كان وجه النقيب بكري ، رغم البرد والمطر المستمرين كان العرق ينضح من جبهته فخلع خوذته وجلس على كرسي عامل المقسم .

كان الكشاف يمسح قطاع السرية ولكن انارته كانت ضعيفة بسبب كثافة الغيوم والوهج الاحمر على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا . كان واضحا جدا ، ان المعركة طاحنة فقد اصبح الصوت دويا هائلا متواصلا .

لقد هب قادة السرايا لنجدة مخافرهم التي طوقها العدو ، وكانوا أول المندفعين بدون أوامر . فصالهم بيدها العدو مع ذلك جمعوا ماامكن جمعه ، ونزلوا في هذا القطاع الرديء متحمسين ، استشهد قائد السرية الملازم ١ ممدوح . كان نشيطا متحمسا ، قاد حضيرة ممن بقي عنده من الاحتياط في السرية ونزل مسرعا دون خوف ، واصطاده كمين في الطريق فقاتل بمسدسه حتى استشهد ولقد روى الجنود : انه اطلق عدة طلقات من مسدسه واستشهد وهو يصيح ، قاتلوا حتى الموت ؛ لا تراجع ، لا تخافوا ، كان يصرخ بهم . الموت أو النصر ، انهم جبناء ، سيهربون قبل الشروق ثم لفظ انفاسه وهو يصرخ . كما اوصى الى والدته قبل ان يفارق ، وهذا ما قاله الرقيب الجريح الذي شفي فيما بعد . بلغوا والدتي ، انني كنت شجاعا ، لم أهرب ولم اتخاذل ورفاقي لا يناموا على الغدر ، لا تخافوا ، كان يئن فلم يستطيعوا اسعافه كانت اصابته قاتلة ففارق الحياة بعد دقائق .

صمد الجنود رغم سلاحهم المتخلف في البنادق ٣٦ والرشيش ٢٤–٢٩ صمدوا في مخافرهم وكان عددهم قليلا امام هجوم اللواء المعادي ، هجم العدو بتشكيل كامل وشن هجومه ضد اربعة مخافر صغيرة على طول

الساحل الشرقي لبحيرة طبريا .. ورغم تحضير المدفعية والزوارق وزوارق الانزال فقد احدثت به خسائر ، لقد قاتل الجنود بأسلحتهم حتى الطلقات الاخيرة . لم يستسلم احد معه طلقة واحدة كانوا جرحى أو قتلى ، ولم يسلم الا نفر قليل .

كانت المعركة عنيفة على مخفر الكرسي ، قتل قائد السرية منذ بداية الهجوم ، وقاتل ذلك المخفر بحضيرة واحدة ساعة كاملة وجرح اغلب افراد الحضيرة وقتل قائدها وانتهت الذخيرة بعد ان قتل او جرح كل من كان في هذا المخفر لم يستسلم اي فرد منهم . كانت معركة عنيفة في النهاية اصطدم فيها الطرفان بالسلاح الابيض واستطاع احد الجنود وهو جريح ان يقاتل مع رامي الرشيش حتى النهاية . بقي رامي الرشيش وطاقمه في الملجأ ، وتراجع العدو ولم يحتل مخفر الكرسي . كانت تهاجم تلك الحضيرة الصغيرة سرية معززة بالمهندسين وقاذفات اللهب ، وتحت ستار من المدفعية الثقيلة .

بقي الرشيش صامداً يقاتل ، وتراجع العدو عن الكرسي فلم يستطع احتلال المخفر ، وبدأ يسحب قتلاه وجرحاه من أمام مخفر الكرسي .

كم كان بطلا ذلك الجندي رامي الرشيش ، كان راعيا اميا ، وكان الملقم مجندا . كان آمر الحضيرة الرقيب يصرخ ، يحمس المجندين ، اليوم ولا كل يوم ينتقل من رامي الرشيش الى الجوالة ، ويعود الى الرماة . يصرخ ، لا يموت في الحرب الا الجبناء ، ثم اصيب وجرح جروحا خطيرة . في نهاية المعركة بدأ العدو يتراجع وانسحب تحت ستار من المدفعية عن الكرسي . بقي ثلاثة احياء جرحى من الحضيرة اسعفوا صباحا ، وقتل خمسة وآمر الحضيرة . مات رامي الرشاش وهو ينزف فوق الرشيش ٢٤ — ٢٩ والملقم يمسك بالمخزن . دون ان يتخاذلوا او يتراجعوا . كم كانوا ابطالا اولئك الجنود الاميون الشجعان . لقد اخطأ العدو في حساباته بالهجوم على هذه المخافر الصغيرة وظن ان تدميرها سهل ، فاصيب بخيبة أمل ، رغم أن كمائنه قتلت النجدات التي

اسرعت اليها . فقد قتل ايضا قائد السرية الثانية الملازم اول سعيد . وقد قاتلت تلك المخافر ولم يستطع العدو احتلالها رغم الخسائر التي منيت بها ، فلم يبق منها إلا عدد قليل من الجرحى الذين اسعفوا صباحا بينما مات أغلبهم بسبب النزف وعدم قدرة الوحدات على اخلائهم .

كان الملازم اول سعيد شهما قاتل بشجاعة . اسرع لنجدة مخفريه بحضيرة ووقع في كمين للعدو فقتل . قاتل مخفر سكوفيا ولم يستطع العدو احتلاله . لم يبق الا رامي الرشيش وملقمه والباقي كانوا جرحى وقتلى ، استشهد اغلبهم . قال أحد الجوالة الجرحى : اعلموا زوجتي ان تربي أولادي واخبروها اني كنت شجاعا لم أهرب ولم اتخاذل لعلها تفخر بي أمام الناس . كان راعيا اميا .

قاتل مخفر الدوكا قتالا عنيفا ، أوقع خسائر كبيرة في قوات العدو . ولم يتركه يخلي قتلاه . قتل أغلب عناصر المخافر ، استشهدوا قبل ان يسعفوا ، لم يتخاذلوا ولم ينسحبوا رغم ان الطريق الى مواقع سراياهم كان مفتوحا .

هذا ما فكر فيه العدو ان يكمن لهم في الخلف ويضغط عليهم من الامام فينسحبوا ويقعوا في الكمائن التي اعدها وفوجىء بتلك المقاومة العنيفة . وتراجع العدو دون ان يستطيع احتلال تلك المخافر الصغيرة .

توقفت المدفعية المعادية عن القصف على تلك المخافر وصبت جام غضبها على مركز الحاصل العسكري . فالحاصل العسكري مركز يقع في ارض سهلية ، من الجنو بساحل البحيرة مباشرة . ومن الغرب مجرى نهر الشريعة ، ومن الشرق على بعد مئات الامتار قرية البطيحة ، ومن الشما لمفتوح على نهر الشريعة حتى توجد بساتين نخيل ، والمركز محصن بعدة منع اسمنتية وخنادق وملاجىء . وتتمركز فيه سرية مشاة ، معززة برشاش هوتشكيس ثقيل وهاون ٨١ فرنسي وهاون خفيف واغلب قادة الفصائل من رتبة مساعد لكنهم مختبرون سابقا وقائد

السرية ملازم اول . لقد خطط العدو لهذا المركز بشكل مختلف عن المخافر الشرقية على ساحل البحيرة . فقد استهتر في الهجوم عليها ، ورغم ان جواسيسه يعلمون كثيرا عن تلك المخافر وعن الجنود الاميين الفقراء واسلحتهم فظنوا انهم لن يقاتلوا . انهم سيهربون ، جنود غير مدربين تدريبا جيدا ، هذا صحيح ، لكن ايمانهم بوطنهم كان كبيرا جدا ، يقاتلون بسلاحهم المتوفر لديهم ، وان كان هذا السلاح رديئا من مخلفات فرنسا ومن مخلفات الحرب العالمية الثانية .

عمل السماسرة والوسطاء والجواسيس على شرائه من اوروبا الغربية ، ومن يدري ماذا فعلت الصهيونية لتصديره الى سورية وغير سورية من البلدان العربية ؟

ورغم كل ذلك قاتل أولئك الجنود قتالا عنيفا ولم ينسحب منهم اي فرد ولم يسمحوا للعدو ان يحتل تلك المخافر رغم قلة عددها وقد أعد العدو لتلك الغارة على المخافر في القطاع الجنوبي بلواء مشاة معزز بكل انواع المدفعية ، ومعزز بكتيبة هندسة ، وزوارق نقل وزوارق رمي، وزوارق رمي صواريخ .

اما الحاصل العسكري فوضعه مختلف ، فقد خصص لهذا المركز فوج مشاة من المغاوير ، معزز بسرية هندسة ، وكانت نسبة الوسائط متفوقة تفوقا كبيرا .

فقد عبر الفوج النهر من المكان الذي عبرت منه الابقار ، ولم يكن عبور الابقار الا للتأكد من عدم وجود الالغام في منطقة العبور ، وتبعد منطقة العبور عن المركز حوالي ثلاثة كيلو مترات وقد عبرت طلائع الفوج وقطعت الطرق قبل التمهيد المدفعي بقليل ، وأسرت المساعد اول علي الذي جاء كي يعالج مشكلة الابقار التي هربت كما تصورت القيادة قبل يوم . لقد ركز القصف المدفعي ونقل الرمي من الساحل الشرقي الى الحاصل ، ولم يكن قائد السرية موجودا ، لقد شاهده الرقيب محمد في اليوم الثاني . كان حزينا بائسا قليل الكلام لانه لم يكن موجودا .

استمر القصف ساعة كاملة ، بمعدل قذيفتين في الثانية ، إضافة لزوارق الصواريخ التي استخدمت من داخل البحيرة . كان الحاصل على اتصال مستمر بمقسم علمين الذي لم ينقطع .

وكان الجنود في مركز السرية الثانية متوتري الاعصاب ، ويطلبون من قائد السرية ان يشنوا هجوما على مركز تل اسود المعادي ، لتخفيف الضغط عن الحاصل العسكري .

كان النقيب بكري ، يخاف ان يخالف الاوامر العسكرية في مثل هذه الظروف ، يضرب كفا بكف بين حين وآخر ، والسماعة على اذنه ، ما عدد القتلى ؟ لا يوجد طبيب ؟ طبيب واحد فقط ، عريف حسن ممرض يعمل في السرية . نخبر قيادة الفوج . طيب اصمدوا نحن صامدون لن يحتلوا المركز وفيه جندي حي ، هذا أكيد . رئيس اركان الفوج ، أعطى أمرا السرية الثانية ، احتلال الطريق ومنع تقدم العدو باتجاه قيادة الفوج . أمر صادر عن الجبهة في حال تقدمه باتجاه الجمرك .

قال النقيب بكري : لا حول ولا قوة الا بالله .

واجاب يا سيدي نحن نحتل النقطة منذ شهرين الم تعلم ذلك ؟ بلغ القيادة كيف تساعد مركز الحاصل العسكري . الان هل نفتح النار على تل اسود ؟

نظر الى الرقيب وقال : عجيب قيادة الجبهة تأمر بان نحتل الموقع الاوباش لا يعرفون اننا نحتله منذ شهرين ، أعطني مطرتك لقد جف ريقي .

قال عامل المقسم : سيدي الحاصل معك .

ـ أيه . كيف صمودكم ؟

يا سيدي العدو يشدد القصف . قتل عندنا حتى الان عشرون وجرح ثلاثون ، والقصف يزداد . افادنا مدنيون من قرية البطيحة ان قوات

معادية عبرت النهر تقدر بالمئات لم يستطيعوا احصاءها . وسوف يكون الهجوم بالانزال سيكون من الشمال الشرقي ، الوضع حتى الان غير واضح ، اقسم الجنود انهم سيقاتلون حتى الموت ولن تتراجعوا .

دمر هاون ٨١ ، ودمر الهاون ٦٠ مع طاقمه ، الرشاشات هوتشكيس تعمل بشكل جيد ، رغم ان بعض افرادها جرحى ، سانتصل بكم .

ـ لا بأس اصمدوا قد نفتح النار لتخفيف الضغط عنكم ، نطلب ذلك من قيادة الفوج ، السرية الاولى في وضع لا تحسد عليه أغلب حضائرها دوريات وكمائن ، والقسم الباقي احتل مخفر تل مشنوق لمنع العدو من التقدم باتجاه قيادة الفوج .

قيادة الجبهة غبية ، قدرت العبور بانه سيكون لتحطيم قيادة الفوج ، وليس الهدف تحطيم الحاصل العسكري .

استغل الرقيب محمد احدى المكالمات وسأل عن العريف حسن . كانت تربطه بالعريف حسن روابط كثيرة ، فقد عاشا معا في قرية واحدة قبل ان يفترقا ، وتقع هذه القرية في الشمال الشرقي على بعد حوالي عشرين كيلو مترا من حماه .

كان العريف حسن في السرية الثانية وطلب نقله الى الحاصل العسكري وقد خطبت له أمه فتاة من القرية ، وكان يجهز لزواجه غرفة في قرية البطيحة لانها قرية كبيرة الى حد ما ويمكن ان يعيش فيها هو وزوجته هكذا كان يخطط ، ونظرا لفقر عائلته في القرية فقد فكر ان ذلك يوفر لهم قسما كبيرا من راتبه في مركز الحاصل العسكري ، لان الاطعام على حساب القيادة رغم انهم يأخذون بدل الاطعام اضافة . كل هذه المغريات دفعت بالعريف حسن ان ينتقل من السرية الثانية الى السرية الثالثة في الحاصل العسكري . وعندما انتقل كان الرقيب محمد لا يزال عريفا وقد شجعه على الانتقال ، ولكن الاخير كان مجندا ولم يخضع لهذه المغريات .

كان العريف حسن شجاعا ، محبا النكتة ، لكن حياة الفقر دفعته الى الهروب من القرية للتطوع في الجيش ، كان يقرا ويكتب لم يقتنع يومها والده بالمدرسة ، لان المدرسة في المدينة والذاهب الى المدينة كالذاهب الى المجهول هذا ما زرعته فيهم فرنسا ، وسلوك الاقطاعي والحجي صاحب الخان عزز قناعة والده ، وكان والده رجلا متدينا يحب رجال الدين ويجلس طويلا معهم ثم اصبح شيخ دين في القرية ، رغم انه اقرب الى الامي فقد تعلم متاخرا القراءة ، واخذ يقرا الكتب الدينية . ورغم ان حجمه كان صغيرا فقد كان صاحب نكتة ، يتهكم على رجال الدين . ويبدو ان النكتة بالوراثة تعلمها العريف حسن من آبائه واجداده ولكن الشجاعة والكرم كانا من طبعه ، بل وفي طبع العائلة فوالده رغم فقره ، يأوي اليه الفقراء . وخاصة زمن الصيف عندما يفتح بيته للنوم في العراء والضيوف يلتحفون السماء كغطاء لهم .

اتصل الرقيب محمد بالحاصل العسكري : (أين العريف حسن المرض) ؟ .

ورد العامل : انه يعالج الجرحى . وكان الصوت من الطرفين صراخا ، لكن بعد فترة قصيرة سمع صوت العريف حسن على الجانب الثاني .

قال : من ؟ انا العريف حسن .

ــ حسن انا محمد . كيف الوضع ؟

ــ الوضع سيء جدا . خاصة في الفصيلة الثالثة . وقع فيها خسائر كبيرة ، القذائف توقفت الان . المعركة بالرشاشات ، صد الهجوم مرتين من اتجاه ساحل البحيرة ، ولكن العدو يعاود الهجوم بقوى اكبر ، املنا من العدو اكثر من عشرين قتيلا . والجرحى اخلي قسم منها ، وعندنا ستة جرحى معادين اختلط الجرحى والكل يتحدث العربية يبدو انهم من يهود المغرب ، ومن يهود اليمن ، لكن القسم الشمالي هاجم مرتين . صد هجوم العدو والطلقات المضيئة فوق الحاصل العسكري يبدو ان

القسم الشمالي من الاجانب ، لم نعرف عنهم الا القليل . سحبنا جريحا منهم وضعه سيء لم نستطع ان نتفاهم معه . حتى يهود اليمن لم يفهموا عليه تصور لا يعرف العبرية هو انكليزي .

سأخبرك بعد قليل ، لقد عاودوا الهجوم . ما قاله العريف حسن كان الرقيب محمد يسجله ، وناول الورقة الى النقيب بكري ، الذي كان واقفا عند باب ملجأ القسم يدخن ، ويستمع . قال : توقف القصف يبدو ان الهجوم بدأ على الحاصل العسكري . قرأ ما قاله العريف حسن وأردف قيادة جبهة حقيرة لماذا لم نفتح النار من هنا على مستعمرة تل اسود ؟ ولو قتل منا الكثير نستطيع بذلك ان نخفف الضغط عن الحاصل العسكري .

وراح يصرخ برئيس اركان الفوج ثانية . كان يرتدي بذلة العمل ، وقد خلع المعطر كان يخرج الى الخنادق ويلحق به عسكري حاملا المعطر. النجوم النحاسية تلمع على بذلة العمل ، وسيدارته عليها ثلاث نجوم هي رتبته رماها عند حامل القسم . وتشكل الزبد على شفتيه . يا سيدي النقيب ماذا تعملون لانقاذ مركز الحاصل ؟ هل اخبرت الجبهة ؟ .

كان يضع السماعة وينظر الى المقسم ويشتم ام رئيس اركان الفوج ، وام قائد الجبهة وام رئيس الاركان العامة ، ويخبط بقبضته على الطاولة ويخرج الى الباب ويعود للاتصال بالحاصل العسكري ثانية .

— الو انا النقيب بكري . (ما هو الوضع — نعم سيدي — الهجوم مركز على الفصيلة الثالثة من اتجاه الساحل وصد الهجوم مرتين وقذائف الهاون كثيفة على اتجاه الفصيلة الثالثة . القتال بالقنابل اليدوية لقد قتل من العدو الكثير ، اشاهد من كوة المنعة اكثر من ثلاثين قتيلا على الارض . انسحب العدو شرقا ، وقع في قطاع الفصيلة حتى الآن عشرة قتلى والجرحى يصمدون .

— اسمع مساعد احمد . خذ من الفصيلة الاولى اربعة جنود ومن الفصيلة الثانية ايضا اربعة جنود وعزز مواقع الفصيلة الثالثة .

ـ نعم يا سيدي : لا يمكنكم لن يحتلوا الحاصل العسكري وفيه جندي حي .

ـ انت شجاع يا احمد ، المهم الصمود . قد تقوم القيادة بعمل ما . سأتصل بك . معكم عامل القسم .

ترك النقيب بكري المقسم وقال : القيادة تقوم بعمل ؟ قال القيادة تقوم بعمل ؟ حتى انا اكذب عليهم ، المهم ان لا يحتل الحاصل العسكري.

وضع الرقيب محمد السماعة على اذنه من جديد : الو الحاصل العسكري . مقسم ما هو الوضع ؟

ـ الوضع لا يبشر بخير ـ القتال شديد باتجاه الفصيلة الثالثة . يشدد العدو الضغط عليها .

والهجوم يشن للمرة الثالثة من الشمال على الفصيلة الاولى ولكن الفصيلة متماسكة ولم يستطع العدو الاقتراب من الاسلاك حتى الآن المركز منار بكامله بواسطة القذائف المضيئة ، ونشاهد العدو من كوة المنعة واضحا .

ـ اين العريف حسن ؟

ـ العريف حسن عنده اصعب مهمة . وقع عدة جرحى وقتلى معادين امام الفصيلة الثالثة سحبوا القتلى لاخذ سلاحهم . وكذلك الجرحى اتوا بهم الى ملجأ الجرحى ، اخذوا سلاحهم والعريف حسن يعالجهم اصبح عنده حوالي خمسة عشر جريحا معاديا وعشرين جريحا من السرية ـ الكل مع بعض في الملجأ . لكن الوضع سيء ، العدو ينزل من الزوارق شرقي المركز على شكل مجموعات ، مجموعات تتقدم باتجاه المركز على الفصيلة الثالثة .

يعاود العدو الهجوم من الشمال على الفصيلة الاولى ـ الفصيلة الثانية منعت اي زورق من الاقتراب من الشاطىء من الجنوب ونحاول تعزيز الفصيلة الثالثة الآن . لكن قذائف المدفعية والقنابل اليدوية مزقت كثيرا من الاسلاك الشائكة . والدفاع الان من الخندق مباشرة . لا يستطيع اي فرد ان يخرج ليصلح الاسلاك الشائكة .

ـ طيب يا عبود ـ اسمع اذا وصل عندك العريف حسن انا عند المقسم ، المهم ان تكونوا رجالا ، لا يهمكم سنقاتلهم حتى الآن قتـل منهم وجرح اكثر منا . كان صوته صلبا وهادئا . دخل النقيب بكري واخذ السماعة وصاح : اين المساعد احمد ؟ انا النقيب بكري .

كان المساعد احمد يشترك مع الفصيلة الثالثة في صد الهجوم ويقودها
ـ اي مساعد او رقيب قريب عليك . ـ نعم سيدي .

في ملجا الجرحى العريف حسن .

العريف حسن . نعم يا سيدي ـ ما هو الوضع ؟ الوضع سيء ، لقد تم اختراق الفصيلة الثالثة ، والان تدافع الفصيلة الاولى من الشمال والفصيلة الثانية من الجنوب .

اغلب عناصر الفصيلة الثالثة قتلى او جرحى ، لا تزال هناك مقاومة في موقع الفصيلة الثالثة ولكن الوضع سيء حتى الجرحى لم نستطع ان نخليهم واختلط الحابل بالنابل في موقع الفصيلة الثالثة وقتل قائد الفصيلة المساعد كما قتل آمر الحضائر وبقي الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ يقاوم

يوجد قتلى من العدو امام الفصيلة بعددها مرتين لم يخلوا القتلى ، عندنا حتى الآن عشرون جريحا من السرية وخمسة عشر جريحا معاديا ، فقدت ابر الفرغرينا . الملجا ممتلىء بالجرحى ولكن الدخان يغطي الموقع رغم هطول المطر . نعم سيدي وصل المساعد احمد .

نعم سيدي ــ الوضع تدهور بالفصيلة الثالثة لم يبق لديهم ذخيرة ما عدا رشيشا من الفصيلة الثانية انتهت الذخيرة ، احتل العدو جزءا من موقع الفصيلة الثالثة والقتال بالحراب ، انسحب العدو من الشمال واتجه الى موقع الفصيلة الثالثة ، وقد يشطر المركز الى شطرين .

اسمع يا احمد ــ ليكن الدفاع دائريا من قبل الفصيلة الاولى والفصيلة الثانية المهم ان لا يسقط المركز بايدي العدو .

ــ نعم سيدي لكن الذخيرة اصبحت قليلة ــ تقاتل بالوحدة النارية الاخيرة .

بدأ الهجوم على الفصيلة الثانية ، وهي لا تملك الا رشيشا استهلكت اثنين من رشيشاتها بموقع الفصيلة الثالثة . الوضع تدهور بالفصيلة الثانية وقتل اغلب عناصرها وجرح الباقي مع ذلك فهي تقاوم القتال بالحراب الان . عض جندي اسرائيلي احد الجنود باذنه وقطعها . قتل من العدو ضعف عدد السرية وجرح اكثر ، قام بالهجوم فوج مغاوير مدعما بسرية هندسة وبعض الزوارق .

اصبح اكثر من خمسين جريحا في الملجأ ، اكثر من النصف جنود معادون ... وانقطع الاتصال مع العريف حسن وعرف فيما بعد ماذا حدث في تلك اللحظة لقد اقترب العدو من الملجأ وصاح العريف حسن انهم جرحى لكنهم لم يرتدوا والقوا على الباب القنابل اليدوية ، رغم ان الجرحى كانوا يصرخون بالعبرية ، نحن يهود جرحى ، لا فائدة ، حرقوا الجرحى بعدة قنابل يدوية دوت في هذا الملجأ ، قبلها بدقائق تحدث العريف حسن مع الرقيب محمد قائلا : الوضع تدهور بسرعة الساعة كانت تشير الى الثالثة والنصف صباحا . ومع ذلك قال له : قد لا اشاهدك بعد اليوم بلغ والدتي ووالدي تحياتي ، قل لهم كنت كما تعرفون شجاعا ، وانسانا قل لهم انني اعطيت الادوية وعالجت الصديق والعدو . اسمع يا محمد بالله عليك سلم على خطيبتي قل لهم بالامانة لا تحزن ، وارجو أن تتزوج

بسرعة . النهاية محزنة يا محمد ولكننا نكافح ، من بقي منا عليه ان يكافح العدو ، كم هم جبناء هربوا اكثر من مرة ولكن اعدادهم كبيرة جدا قتلوا مجموعات مجموعات . الوداع ، اذا استطعت سأكلمك ثانية .

عامل المقسم كان يصرخ . لا . لا — فجروا الملجا ؛ مات الجرحى لا . لا . كانت اصوات الرشاشات وانفجار القنابل تسمع بالهاتف ، صاح عامل المقسم لا . وسمع دوي وانقطع الاتصال الساعة الرابعة صباحا . كان صوت الرشاش الثقيل الوحيد المسموع مع اصوات انفجار القذائف . كان الرقيب ماجد شجاعا فقد اعاد ترتيب دفاع الفصيلة الاولى واصبح المساعد احمد في الفصيلة الثانية .

احترق الجرحى بكاملهم داخل الملجا من العرب واليهود ، القوا عليهم القنابل فاختنقوا ثم احترقوا ثم فجروا الملجا عليهم .

لقد انتهت الفصيلة الثانية بين قتيل وجريح . بعد ان انتهت ذخيرتها . وبدا الصراع عنيفا باتجاه الفصيلة الاولى وكان الرقيب ماجد شجاعا هادئا نشيطا سيطر على الفصيلة. واحكم الدفاع بواسطة الرشاش ٢٤ ــ ٢٩ والرشاش هوتشكيس لم يستطع العدو ان يخترق الدفاع وتراجع ، ليخلي جرحاه . كان القتلى كثيرين ، لم يخلوهم جميعا لقد حشروهم بحفرة وصبوا عليهم الوقود واحرقوهم . واستمر القتال عنيفا باتجاه الفصيلة الاولى وتراجع العدو وبدأ بالانسحاب قبل اول ضوء أخذ معه الجرحى من الفصيلة الثانية اما جرحى الفصيلة الثالثة فلم يصلوا الى الملجا ، وكان عددهم ثلاثين جريحا . فجر المنع في الفصيلة الثالثة والثانية ومقر قيادة السرية والملجا ، والمقسم . وحاول جاهدا ان يحتل المنعة في الفصيلة الاولى فلم يستطع ، وانسحب تحت ستار من قصف الهاون بواسطة الزوارق عبر بحيرة طبريا .

لقد انسحب العدو وهم يطلقون النار عليه . ولم يبق له اثر في الموقع كانت جراحهم بليغة . بقي لديهم اربعة اشرطة . وقد اطلق ٩٥ شريطا

كل شريط خمسون طلقة اطلقت خلال اربع ساعات متواصلة من الصراع مع العدو الذي ترك الساحل ودماء جنوده باقية اثارها . كانت عدة جثث معادية لم يجدوها بين الشجيرات شمال مركز الحاصل العسكري وكانت هناك جثث طافية في البحيرة . لقد سلم من الفصيلة الاولى رقيب وثلاثة عساكر جرحى .

بعد ان غادر العدو بقيت آثاره في الحرائق . لقد ارتكب فيها جرائم اسوا بكثير من جرائم النازية .

انتقل الرقيب والجرحى الثلاثة الى قرية البطيحة واستقبلهم فلاح هناك حيث اركبهم بغاله ونقلهم الى مركز السرية الثانية على الطريق العادية . كانت سرية الهندسة من قيادة الفوج قد استنفرت ليلا ، واعطيت الاوامر بالتحرك الى الحاصل العسكري . وطلب من السرية الثانية تعزيزها ، فأمر النقيب بكري بان يذهب الرقيب محمد مع حضيرته المتواجدة في موقع السرية ليعرف ماذا حدث بالضبط .

لم يفكر بالالغام ، ولم ينبه من قبل قائد سرية المهندسين .

كان الوضع كئيبا ، فقد التقى شرقي تل احمر بالفلاح وبغاله التي تحمل الجرحى ، واستفسر من الرقيب ان العدو انسحب ولا اثر له ، ولم يستطع ان يلغم الارض التي انسحب منها . وتابعت سرية المهندسين مع الحضيرة الى الحاصل العسكري .

بدت اشعة الشمس الحمراء باهتة واحيانا محتجبة بواسطة الغيوم الماطرة .

وقد روى الرقيب الجريح للرقيب محمد بكلمات مختصرة قائلا :

ـ لم يستطيعوا ان يقفوا لحظة واحدة في الحاصل العسكري ، هربوا بسرعة . وظل رشاش الرقيب ماجد يلاحقهم ، حتى بدات المدفعية ثانية بقصف المركز .

كان الرقيب ماجد يصرخ بالجنود ، لـن يحتلوا هذه المنعة مهما حاولوا ، كم قتيل معاد سقط امامها ؟

كانت ليلة مظلمة وبدأ نهار عبوس لا زالت الغيوم السوداء تغطـي المنطقة ، واقترب الرقيب محمد من الحاصل العسكري ، كانت رائحة الجثث المحروقة تعم المنطقة لا زالت جمرا احمر ، ولا زالت هناك جثث ملتهبة . في تلك الحفرة وفي الملجأ الذي يخرج منه لهب النار ، الرائحة تزكم الانوف تنبعث من جثث متناثرة هنا وهناك .

القسم الغربي والقسم الشمالي كانا هادئين ، المنعة باقية محصنة آلاف الحفر في المراكز ، في كل متر مربع وقعت قذيفة مدفع ، وقد يكون اكثر . البنادق ملقاة على جانب الجثث بدون ذخيرة والمسـدسات الرشاشة المعادية ملقاة جوانبا اثناء سحب الجثث بقيت الاسلحة على ارض المعركة .

وفكر الرقيب محمد .

كم خدعوا اليهود اليمنيين والمغاربة بأرض الميعاد ، لكن هل ارض الميعاد هي ارض قتل وتشريد ؟. كم قتل منهم في هذه المعركة ؟ صحيح اغلب افراد السرية قتلوا او جرحوا لكنهم لم يستطيعوا ان يحتلـوا المركز او ان يبقوا فيه ساعة واحدة ، هربوا بالزوارق . الاحياء احرقوا الاموات . ظنوهم اعداء . لم يستطيعوا ان يميزوا اصوات بعضهم البعض انها مأساة البشرية ، النازية الجديدة . .

قرأ الرقيب محمد قبل ايام كتابا عن النازية الجديدة . كيف فعل رجال هتلر في معسكرات الاعتقالات كيف كانوا يحرقون الناس وهم احياء لقد حرقوا الجرحى في الملجأ القوا عليهم قنابل يدوية ثم صبوا وقودا من برميل من الوقـود في الملجأ واشعلوه ، اكثر مـن ستين جريحا اغلبهم من افراد العدو كان يعالجهم العريف حسن مع جرحى السرية ، حرقوا

مع الجميع ، كان عملا رهيبا شنيعا ، لقد قامت النازية في معسكرات الاعتقال في بولونيا بحرق الالاف وهم احياء دون ذنب أو خطيئة لمجرد الاشتباه بهم على انهم معادون للنازية . لقد احرقوا المانا لانهم شكـوا باخلاصهم للنازية ، وها هي النازية الجديدة في اسرائيل ، تحرق الجرحى يهودا وعربا في ذلك الملجأ .

كان صعبا على الرقيب محمد ان يحصي عـدد القتلى كانت هناك النار متوهجة . جمر هنا وهناك ، عظام مفحمة ، وجماجم كثيرة ، كان المنظر مرعبا ، لم يستطع الرقيب محمد ان ينظر الى ذلك الفرن الرهيب في الجنوب الشرقي من موقع الحاصل بعيدا عن الفصيلة الاولى . كان الدخان يتصاعد من جثث تحترق جثث ملقاة هنا وهناك . ايد مبتورة وجثث ممزقة . لم تجمع اجزاؤها بعد . لم يعرف العدو من الصديق على مساحة أكثر من خمسة هكتارات . ملاجيء مدمرة ما عدا القسم الشمالي الغربي من الموقع .

كان الرقيب محمد مصعوقا لهول المنظر ، معقول هذا ما يرد في كتب التوارة ، وهل هذا عمل يصدر عن بشر لهم احساس ؟ كان يقرأ الكتب عن النازية اما الذي يشاهد بعينه فغير الذي يقرأ وهو مرتـاح يقرأ كتابا ويتخيل . اما الان في الحاصل العسكري في هذا الملجأ فقد احرقوا الجرحى احياء .

كان يرتجف من هول المنظر ، انه الرعب ان تحرق انسانا حيـا تخيل ما قراه عن النازية اذن النازية حقيقية وليست وهما مصطنعا .

كان يتساءل لماذا احرقوا اليهود ؟ لانهم خونة ؟ قال العريف حسن انهم سكارى ، واذا كانوا سكارى يحرقون بعضهم البعض ؟

في زاوية الملجأ . كان جريح يحاول الهرب من الحريق ، لا زال رأسه سالما لم يتفجر بعد . لقد تشبث بمصراع الباب لينقذ نفسه ولكن الاخرين تمسكوا به فاحترق معهم ما عدا يده ورأسه ، ولم يستطع احد

ان يقترب من النار كانت رائحة شواء لحم البشر مريعة . لم تملك السرية الهندسية معدات سوى الرفوش ، ولم تستطع ان تقترب من الملجأ والحفرة ، فاعطى قائد السرية اللازم امرا بجمع الاعتدة اولا ثم جمع الجثث المتناثرة هنا وهناك . ونقلهم في سيارة شاحنة الى قيادة الجبهة ،وكذلك العتاد المشكل من مختلف انواع الاسلحة الانكليزية والفرنسية والامريكية .

لقد اتجهوا الى المنعة في الشمال الغربي . كانت موحشة كبيرة ، واحس الرقيب محمد انها قلعة فيها جيش تلخص بشخص الرقيب ماجد ، كانت يداه متدليتين على جانبي سبطانة الرشاش ، ورأسه عليها . كتب على السبطانة بدمه يعيش الوطن ، تعيش الامة العربية . نزف وفارق الحياة قبل لحظات من وصول الرقيب محمد وجماعته ، فلا زال دمه ساخنا . ينزف من طلقة مرت بخاصرته .. ثلاثة اشرطة فقط ملأى جاهزة ، بيد الملقم الذي فارق الحياة توه ولا زال يمسك بالشريط .

حوالي خمسة آلاف طلقة فارغة بجانبه ، السبطانة مهدلة هناك يبدو انها انتهت ، الملقم ملقى على ظهره ، كانه نائم اصيب بطلقة في رجله اليمنى ، تحته بركة من الدم ، كانت الفوارغ من الطلقات تغطيها الدماء كان وسيما يبدو انه حلق ذقنه استعدادا للاجازة . كان خد الرقيب ماجد ملصوقا بالسبطانة وصدره يحتضن الرشاش الثقيل .

كانت واضحة كتابته بدمه ، خطها بسبابته بعد ان انسحب العدو خارت قواه من كثرة النزف وقد اعتصر الالم والاسى قلب الرقيب محمد . ان تلك المجزرة البشرية اكبر من ان يتحملها عقل الانسان العادي ، لماذا قام العدو بهذه المجزرة ؟ لماذا . ؟؟؟؟

لم يستطيعوا أن يحتلوا اي مخفر ، اذن لماذا قاموا بهذه الجريمة ؟ دفعوا بأولئك الفقراء الذين اجبرتهم الصهيونية على الهجرة الى

فلسطين ، ثم بدؤا بارسالهم الى الجحيم ، لماذا احرقوهم ؟ هذا هو السؤال الذي لم يجد له الرقيب محمد جوابا .

ركب المقسم واعيد الاتصال مع قيادة الفوج ومع مقاسم السرايا .

واتصل النقيب بكري طالبا عودة الحضيرة فورا ، كان الرقيب محمد يقف صامتا امام الملجأ المتوهج الذي حرق فيه الاسرائيليون الجرحى ، كان العريف حسن ممرضا . تذكر كلماته ليلا ، عندما قال قد لا نلتقي بعد ، ان صوته يدق في اذن الرقيب محمد ، انه الآن مع هؤلاء البشر ، ضحية الغدر ، ضحية غدر الذئاب الضالة التي اعماها الحقد والكراهية للبشرية ، فارسلت بشريا ليموتوا ثم ليحرقوا أحياء بأمر الرب .

وقال الرقيب محمد في نفسه : لا . لا يمكن ان يكون كذلك ، فالديانات قديمها وحديثها تبشر بالخير وتدعو للتسامح الا رب اسرائيل يدعو للحقد وعندما يقولون ان الله وعدهم بهذه الارض ، يتصورون الاله سمسار عقارات لا أكثر ولا أقل . هنا يرقد العريف حسن وهو يسعف الجرحى الاصدقاء والاعداء وهنا تثبت شجرة زيتون على قبره لانه كان أعزل الا من ضماد أو دواء لجريح يصرخ أو ملهوف يستغيث عدوا كان أم صديقا . قتلوه وهو يسعف جرحاهم وحرقوا جرحاهم أيضـا .

لقد أرسل الرقيب ماجد ، والجندي حمدان الى قريتهما وروى والد الرقيب محمد انه عندما وصل جثمان الجندي حمدان الى القرية سألت والدته ، اذا كان الرصاص في ظهره أو صدره . وعندما علمت انه كان بطلا ، زغردت وحولت المأتم الى عرس حقيقي . لقد أحضرت عروسه وصاحت بأعلى صوتها اليوم عرس ولا كل الاعراس ، اليوم عرس الشهداء ، الذين يدافعون عن الوطن ، يدافعون عن شرفنا ، كانت كلماتها معبرة بليغة وبسيطة . كانت تزغرد وهي تسير الى المقبرة ،

تصرخ بالنسـاء أن يقرعن الدفوف ان يزغردن . كانت حافية وهي تسير في وداعه الى العالم الآخر . لقد صمت والده ولم يقل اية كلمة سوى : (الله اكبر لقد مات ، ولكنه مات بطلا) .

لقد القى العدو رشقة من مدفعيته عند انسحابه ايضا على قرية البطيحة . كان الفلاحـون في تلك الليلة يقظين على طـول الجبهة ، مذعورين ، كل منهم صنع ملجأ صغيرا تحت الارض بجانب منزله .

ناموا فيه رجالا ونساء صغارا وكبارا . وقد هدمت عدة بيوت تحت القصف . انهار جامع القرية الصغير ومات عدة كهول بسـبب الضغط ، من صوت الانفجارات . وقتل عدة اطفال بعد ان انهارت الملاجىء على رؤوس اصحابها .

تلك هي أعمال الذئاب ، والنازية الجديدة في فلسطين ــ تلك هي الصهيونية وستمر الكفاح العربي المتصاعد .

★ ★ ★

قــراءة في خــط
الثــورة الاقتصادي

الدكتور : نــاجي الدراوشه

ابان تعاظم المد الثوري في الوطن العربي بالتجاوب مع ثورات العالم الثالث وفي حميا تفاقم التناقضات الرئيسية والفرعية في العالم وصعود حركات التحرر القومي وتأزم ملحمة الصراعات الطبقية والاقليمية في الوطن العربي ، زحفت طلائع الجماهير الشـعبية المدنية والعسكرية في القطر العربي السوري تقودها قوى البعث فأخذت السلطة وأطاحت بقوى المجتمع القديم في الثامن من آذار عام ١٩٦٣ وأودت بحكـم الانفصال والرجعية .

مفهوم الثورة

وطرحت مسألة اساسية في ساحات النضال العربي ، عملية الثامن من آذار هذه ، هل هي « ثورة » أم « لا ثورة » ؟.

هي « لا ثورة » : هي انقلاب عادي وتسلط فئة ، هذا ما قاله الخصوم وكان لهم رأيهم ودعاواتهم وأقاويلهم وأباطيلهم ومؤامراتهم .

هي « ثورة » : هي تغيير جذري نوعي ، هذا ما اعلنه انصارها ولهم أفكارهم ودعاواهم وحقائقهم وأعمالهم .

اذ اكد صانعوها أن ثورة آذار جاءت انطلاقا من فهم واضح لمعطيات العصر قدمه للعروبة البعث العربي الاشتراكي الذي تمخض بتصور جديد لصياغة حياة عرب العصر وتنظيم مجتمع الامة العربية تنظيما موحدا يقوم على الرابطة القومية ويمتلىء بالمضمون الاشتراكي والديموقراطي الذي لا ينحصر في الحدود القطرية .

وعلى ذلك ، فهمت الثورة العصر على انه عصر انهاء الاستعمار ، عصر يقظة القوميات الناهضة في العالم المغلوب ، وعصر الاشتراكية أيضـا .

وعليه ، فهمنا العصر على انه عصر انجازات التقدم التقني الحديث المتسارع . وعصر التنمية الاقتصادية والاجتماعية والديموقراطية الشعبية ووضع الدولة اداة في خدمة الجماهير لا سيف ارهاب مسلطا على رقاب الشعب ، انه عصر الحريات . حريات الشعوب وحريات الافراد .

وفهمنا الثورة ، تحولا اساسيا في مستوى العيش ونمط الحياة والفكر والثقافة ، وفهمناها تغييرا جذريا لعلاقات الانتاج والاقتصاد

نحو مجتمع العدالة والحرية والرخاء والمساواة ، أي انها مسيرة للتحويل الاشتراكي والوحدة القومية العربية المتحررة معا .

وفهمنا الثورة على انها نضال شاق وعمل دائب لتوفير الشروط الموضوعية من أجل تفتيح انسانية الانسان وبناء الانسان العربي الجديد وتحقيق رسالة الامة العربية وأداء دورها في معترك الامم والحضارات . ومن هنا تستمد الثورة معناها وصورتها ونهجها .

وبكلام آخر ، تفجرت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ في القطر العربي السوري واتسمت منذ البداية بانها عملية تاريخية كبرى توجت نضال الحركة الجماهيرية العربية المتصاعد ، وكانت استجابة رائعة للوعي القومي والطبقي المتنامي في الستينات في جميع ارجاء الوطن العربي من المحيط الى الخليج . وبدت تعبيرا حيا عن اتجاهات التطور التاريخي للمجتمع العربي ورفضا ونقضا لواقع التخلف والتجزئة والاستغلال والانفصال والعدوان .

وما كانت الثورة في هذا القطر ، التي جاءت كثورة البعث في الثامن من شباط في العراق في العام ذاته ، سوى حصيلة سيرورة الانتاج الاجتماعي ونمو الاقتصاد وتطور العلاقات الاقتصادية والصراعات السياسية والاجتماعية من خلال الوضع الثوري الذي ساد آنذاك في الوطن العربي عامة ومشرقه خاصة فمثلت التعبير السليم عن المصالح المادية والمطامح القومية والمطالب الشعبية لجماهير الفلاحين والعمال والحرفيين وصغار الكسبة والمثقفين المدنيين والعسكريين عندما رفعت رايات الوحدة والحرية والاشتراكية .

وهكذا حملت الثورة في اعطافها فكرة البعث ومبادئه واهدافه ونداءاته وأكدت عزمها على نقلها من مستوى المبادىء والنظرية لتزجها في حقل الممارسة الحية والتطبيق العملي فأطلقت على مدى الساحة العربية صيحة بشائر الامل والتفاؤل بالمستقبل العربي المنشود .

ومما يلوح بالخاطر ،بمناسبة احياء ذكرى مرور ربع قرن على قيام الثورة ، وما يمر بالفكر . تذكر وجيز للوضع الثوري للمجتمع العربي الذي نشأت فيه ارهاصاتها ومقدماتها ، وكذلك تأمل في الاسس التي تبنتها ، ونُعنى خاصة بالمجال الاقتصادي وما تم من اجراءات في التحويل الاشتراكي وصياغة البنية الاقتصادية ومواجهة عملية التنمية ومعالجة المشكلات الاقتصادية والمهام التي تطرح امامها الآن ، مع القاء نظرة على آفاقها المستقبلية .

معالم في الوضع الثوري

حدثت ثورة الثامن من آذار في مرحلة كانت تواجه الامة العربية فيها تناقضات ومخاطر وتحديات عنيفة تهدد وجودها ومصيرها : منها التحدي الاستعماري بمختلف أشكاله وصوره الذي كان يعمل على تمزيق وحدة العروبة وتكييف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية لتامين مصالحه على حساب جماهير الشعب العربي ؛ ومنها تحدي موروث التجزئة السياسية والتخلف الاقتصادي والظلم الاجتماعي وسيطرة آليات الاستغلال ومؤسسات الاقطاع والراسمالية الناشئة ، ومنها تحدي القوى السياسية المتضاربة والتخبط في مواقفها النظرية والعملية وتشتتها الايديولوجي من اقصى الرجعية الظلامية الى اقصى المواقف الانفصالية اللاقومية المرتبطة ، ومنها تحدي التعوق الفكري والضياع وبؤس الوعي وعفوية حركات الجماهير والتلقائية وفقدان التنظيم والقيادة والتوجيه .

اما في القطر العربي السوري بخاصة ، تميزت الحقبة الانفصالية السابقة للثورة بسيطرة افكار البرجوازية الرجعية التي كانت تطمح الى بناء اقتصاد سوري متقوقع مستقل حسب مفاهيمها وبما يحقق مصالحها . وجسدت ذلك التشريعات والسياسات الاقتصادية

والاجتماعية . كما تميزت هذه الحقبة بمحاولات تثبيت الاطار السياسي البرجوازي الاقطاعي للسلطة ، البرلماني الانتخابي المزيف طورا والديكتاتوري الفردي طورا آخر .

وطبعا سادت في هذه الحقبة العلاقات البرجوازية التي اعتمدت على الملكية الخاصة والاعمال والمغامرات الفردية واستهدفت تحقيق اكبر ربح ممكن لأصحابها في الصناعة والتجارة والحرفة والزراعة ، واستمرت جنبا الى جنب مع بقاء العلاقات الاقطاعية في الريف ، وكأنها في « زواج كاثوليكي » لا فكاك له .

فمالكو وسائل الانتاج الاساسية (الارض ، ورؤوس الاموال والمعامل) ظلوا هم أنفسهم اقطاعيين متبرجزين ، أو برجوازيين أبناء الاقطاع ، كما في عهد الاحتلال الاجنبي الذي سبق الاستقلال الوطني ، أي ان العلاقات الانتاجية الاستغلالية بقيت كما هي بل ازدهرت شرائح المرابي والسمسار والمحتكر والمهرب وكان لهم صولة وجولة .

وبقيت القوانين الرأسمالية تسيّر الاقتصاد بمختلف قطاعاته مع قدر من التدخل والحماية توجهه السلطة لخدمة مصالح الاقطاع والبرجوازية الراسمالية الناشئة فضلا عن مصالح زبانيتها .

وبقي سلوك الاستئثار والامعان في مزيد من المكاسب والارباح وراء ستار شعار « التعاون بين مختلف طبقات السكان » وشعار « وحدة الصف الوطني » .

وبمفعول ديالكتيكي ، انعكس اخيرا تمركز الثروة وسيطرة البرجوازية شبه الراسمالية وانظم حكمها وسياسات ممثليها باسوأ النتائج على الاقتصاد والمجتمع في بلادنا في فترة حكم الانفصال . فقابلت الجماهير الشعبية ذلك بأعنف المعارك . وهي معارك بلغت ذروتها في تفجير ثورة ٨ آذار ١٩٦٣ حيث لاح فجر جديد انار الدرب امام تطور

اقتصادي جديد ومنجزات وطنية جديدة ، وتحول اجتماعي جذري وتهيأت فرصة تاريخية جديدة تستعيد ما تبدد من الفرص التي منحها الجلاء والاستقلال الوطني وقيام الجمهورية العربية المتحدة العتيدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ كاول انجاز وحدوي في العصر الحديث .

من هذا الوضع ، جاءت ثورة الثامن من آذار ، ثورة الجماهير المنتجة ؛ تحمل معها قبساً من الرؤية والوضوح النظري يتمثل في ادراك واسع لأهمية الاقتصاد في حياة المجتمع ، لمسألة تغيير علاقات الانتاج الاقتصادية ، لمشكلة تنمية وسائل الانتاج مع تقدم العلم والتقنية ، ان لم نقل لقضية تجديد المجتمع العربي ككل .

ولذلك رفضت الطريق البرجوازية في العمل الاقتصادي القائم على التلقائية والتجريبية والارتجال ومبدأ « دعه يعمل ، دعه يمر » ، جنباً الى جنب مع رفض آلية الاستغلال والعلاقات الاقطاعية الرأسمالية .

وعلى أساس من الرؤية الجديدة بدأت الثورة ببناء تجربتها الثورية المتميزة وأخذت في ارساء القواعد المادية والتشريعية لترسيخ الاقتصاد المخطط ، اهتداء بالفكر البعثي في الاقتصاد . وبالانطلاق من معطيات الواقع وضروراته مع التأكيد على السير في طريق الاشتراكية من اجل بناء مجتمع الكفاية والعدل .

هذا ما يؤكده ثوار آذار

وخير ما يؤكد ذلك قول الرئيس حافظ الأسد :

« ... ان الاشتراكية ، هي طريقنا الوحيد الى مجتمع العدل والكفاية وهي التي تقوم على اسس العلم ، وتستعين في التطبيق بكل ما يضعه العلم بين أيدينا من خبرات .

لقد ناضل شعبنا من أجل الاشتراكية ، لأنها نظام العدل والكفاية ، ولأنها الوسيلة التي تتيح للانسان أن يحقق ذاته ، وأن ينتج ويبدع ، ويحقق التقدم لوطنه ولنفسه . كما آمن شعبنا بالاشتراكية لارتباطها العميق بتاريخه . فعلى امتداد هذا التاريخ ، تتابعت الاحداث والدلائل المشيرة الى كفاح شعبنا المستمر من أجل بناء حياة كريمة عادلة ، ينعم فيها الانسان بكل ما يساعده على تحقيق خصائصه الانسانية .. »

فكر البعث والحياة الاقتصادية

اولى فكر البعث النظر في الحياة الاقتصادية وقوانين سيرهاواتجاهات تطورها ومصالح الجماهير المادية فيها ومؤسساتها ومشكلاتها اوسع اهتمام .

ومن خلال ظروف النشأة ومعاناة تجربة النضال الاشتراكي برز فكر البعث يصوغ مبادئه ومنطلقات سياساته الاقتصادية . ففي الدستور عام ١٩٤٧ يؤكد البعث على أن الاشتراكية هي النظام الامثل الذي يضمن للامة غدا مضطردا في انتاجها المعنوي والمادي . ويحدد أن الثروة الاقتصادية في الوطن هي ملك الامة . وأن العمل مصدر القيم .

ويرى أن التوزيع الراهن للثروات والموارد في الوطن العربي غير عادل وغير كفؤ ولذا لابد من التوزيع العادل اجتماعيا والكفوء اقتصاديا .

ويؤكد على أن موارد الطبيعة الكبرى ووسائل الانتاج الكبير والمؤسسات ذات النفع العام ملك للامة تديرها الدولة وتلغي الشركات والامتيازات الاجنبية . ومع أنه ينص على أن التملك والارث حقان طبيعيان مضمونان في حدود المصلحة القومية فانه يحرص على تحديد الملكية الزراعية والملكية الصناعية بما يتناسب مع مرحلة التطور الاقتصادي وبما لا يؤدي الى استغلال جهد الآخرين .

ويوصي بوضع برنامج شامل على ضوء أحدث التجارب والنظريات الاقتصادية لتنمية الانتاج القومي وفتح آفاق جديدة له .

وبعد تفجر الثورات البعثية عام ١٩٦٣ عمق البعث نظراته الاقتصادية فبين ملامح الطريق العربي الى الاشتراكية ، وابرز قانون تلازم النضال القومي والنضال الاشتراكي بما ينطوي عليه من التزام بالقضايا القومية العربية ووقوف في الخط الامامي بغية التصدي لكل محاولات العدوان والهيمنة وبما يوجبه من تحقيق لمصالح الشعب وبما يقتضيه من تحولات اشتراكية وتنمية مخططة وأوضح البعث ، مفاهيمه الاشتراكية واكسب رؤيته الاقتصادية صيغتها العلمية والموضوعية والثورية على نحو لا اوضح ولا ابلغ تحديدا من قبل . وشمل الوضوح النظري الميدان الاقتصادي الذي قاد الى التاكيد على ضرورة الغاء ظروف الاستغلال المادي التي تسلب المواطن الجوهر الانساني . كما حدد الخطوات الضرورية لعملية التحويل الاشتراكي للمجتمع وقواها ومجالاتها مؤكدا على خلق علاقات انتاج اشتراكية في الصناعة والتجارة والزراعة والريف والحضر ودفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية اساس الديموقراطية الشعبية . ولم يتوصل فكر البعث الى هذا الوضوح لولا انه قد اختار منهج العلم والعقلانية ومسلك القيم ، فاقام التناسب بين العقلانية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وهكذا من المنطلقات العلمية والثورية ، اعتبر البعث ان التطور التاريخي للاقتصاد كغيره من مجالات الحياة الاجتماعية ، انما يحدث وفق قوانين موضوعية توجيهية يمكن وعيها واكتشافها ومعرفتها علميا واستخدامها عمليا على صورة تدابير فعالة في مصلحة المجتمع ، علما بأنه لا يمكن ابطالها ، كما لا يجوز تجاهل الظروف العامة الملموسة الداخلية والخارجية التي تحيق بها . ذلك أن الجهل بسير التطور الاقتصادي واطاره التاريخي ومحيطه الطبيعي وقانونيته العلمية او تجاهلها معناه التصور الفكري والعملي عن التأثير في مجريات التطور الاقتصادي ، كما نتيجته الاستسلام امام همجية التطور التلقائي السائب

وما يعتوره من تناقضات وفوضى وازمات ومصاعب ، كما مؤداه العجز حيال التأثيرات الخارجية الطارئة والسقوط في دوامة الاضطراب والفوضى التي قد تنتاب سيرورات الانتاج والتوزيع والاستهلاك والاستثمار وتعثر نمو الزراعة والصناعة والتجارة وسائر الفعاليات الاقتصادية المختلفة .

واهتداء بهذا الموقف ، اقدمت الثورة على انجازين هامين الاول هو تأميم الصناعات الراسمالية والمصارف وبناء قطاع عام في الاقتصاد الوطني ؛ والثاني هو تطبيق الاصلاح الزراعي الذي قضى على العلاقات الاقطاعية في الريف وادى الى توزيع الاراضي على الفلاحين وانشاء حركة تعاونية في الانتاج الزراعي .

اجراءات التحويل الاشتراكي

وفي الواقع العملي ، حطمت ثورة الثامن من آذار سيطرة نظام الاقطاع والرأسمالية وآليات الاستغلال الطبقي وشرعت في ارساء اسس المجتمع الجديد ، فبدأت باعادة تشكيل البنية الاقتصادية ثم انطلقت الى تنمية القاعدة الاقتصادية للقطر . وكان اول عمل قامت به في سنواتها الاولى هو تأميم جميع المصارف وشركات التامين في البلاد واخضاع التحويل الخارجي للعملة لرقابة الدولة ، وبعد ذلك قامت الثورة بسلسلة اجراءات ثورية . منها تعديلات جذرية في قانون الاصلاح الزراعي والعلاقات الزراعية باتجاه أشمل وأكثر جذرية ، واردفت الثورة هذه الاجراءات بعدد من التشريعات أممت بموجبها الشركات والمنشآت الصناعية الكبيرة والمتوسطة ، وحصرت استيراد الجزء الاعظم من السلع المستوردة بالدولة .

كما حصرت بالدولة ايضا تصدير المواد الرئيسية القابلة للتصدير وهي الحبوب والقطن ومشتقاتها ، وبذلك سيطرت على الجزء الاعظم

والاهم من التجارة الخارجية . وحدت التجارة الخارجية وتجارة الجملة اساسا وبعض تجارة التجزئة بيد الدولة ، وخصصت لها المؤسسات وانشأتها ونظمتها .

ولعل من اهم المنجزات ان الثورة حصرت استثمار المواد الطبيعية بالدولة ، واكدت على استثمار النفط وطنيا ، رغم ضغط واغراء الاحتكارات البترولية .

تجديد البنيــة الاقتصادية

وعليه ، تحدد التركيب الهيكلي للاقتصاد الوطني حسب المنهاج المرحلي لثورة الثامن من آذار الصادر عام ١٩٦٥ وغدا مكونا من قطاع عام وقطاع تعاوني وقطاع مشترك وقطاع خاص .

واضحى القطاع العام رئيسيا بعد أن كان في الحقبة السابقة للثورة ثانويا وأخذ يكون اكثر فأكثر قائدا ورائدا لمجموع النشاط الاقتصادي في القطر وتركت الثورة مجال النشاط الانتاجي مفتوحا امام القطاعات الاخرى حين فرقت بوضوح بين راس المال الاحتكاري المستغل وبين رأس المال الوطني المنتج المنسجم مع خط الثورة ؛ ودعمت جميع النشاطات المنتجة التي تساهم باخلاص في تنمية موارد البلاد في اطار الخطط المقررة . واثبتت الثورة ان الاشتراكية لا كما يصورها الخصوم، ويدعون بأنها اجراءات انتقامية وقمعية بل هي في جوهرها تطبيق ايجابي للعدالة الاجتماعية ومدخل اكيد لتنمية انتاج الثروات الزراعيةوالصناعية ورفع مستوى المعيشة وتجديد خط الحياة واشراك جميع المواطنين في بناء الاقتصاد الوطني .

وعلى هذا النحو تمت صياغة علاقات الانتاج الجديدة في الملكية والعمل ، وترسخت البنية الاقتصادية في سورية ضمن القطاعات التالية:

فهناك القطاع العام أولا ، وهو قطاع رئيسي يسيطر وتتمثل فيه جماعية الانتاج والملكية والشروط المادية للتحويل الاشتراكي وضمانات بقائه ونموه .

وهناك القطاع التعاوني يساند القطاع العام ويساعد على ازالة علاقات الاستغلال واوضاع التخلف .

وهناك قطاع مشترك يتفاعل من خلاله النشاط العام والفعالية الخاصة ويمكن ان يساهم في عملية التنمية ودفعها الى الامام .

وهناك قطاع خاص يشمل فعاليات اقتصادية هامة في الزراعة والصناعة والحرفة والتجارة والخدمة المتعددة الاصناف والاشكال .

ولقد بنت الثورة هذا التنظيم البنيوي على الحقائق التالية :

ان الحقيقة الاولى التي يكشف عنها التحليل هي أن التناقض التناحري الرئيسي في البلدان النامية لا يكون بين القطاع العام وارضيته الاجتماعية من جهة وبين القطاع الخاص أو القطاعات الاخرى وأرضيتها الطبقية من جهة اخرى ، انما يكون التناقض الرئيسي قائم بين الاقتصاد الوطني ككل (بقطاعاته وقواه) وبين الاقتصاد الامبريالي والاحتكاري .

وهذا ما يفرض تعايش القطاعات وتفاعلها وتعاونها وحل تناقضاتها ومشاكلها .

والحقيقة الثانية هي ان القطاع العام مهما بلغ شاوه ، لا يكفي وحده، لسد متطلبات المجتمع وتلبية حاجات جماهير الشعب من المنتجات والخدمات وتحريض التنمية الشاملة .

وهذا ما يفرض وجود القطاعات الاخرى للاسهام في تلبية الحاجات والوفاء بالمتطلبات المجتمعية .

والحقيقة الثالثة من معطيات الواقع تتمثل في أن القطاع العام نظرا لاتساعه وتعدد مجالاته لا يسلم من احتمالات التعرض للانحراف والخلل والقصور وغيرها من المخاطر والمصاعب .

وهذا ما يجعله دائما بحاجة للتقويم والتصحيح والاصلاح والمراجعة والتطور حسب مقتضيات تطوره الواقعي .

النهوض بالتنمية الاقتصادية

وضمن هذا الاطار البنيوي تم انتهاج نهج التنمية الاقتصادية والاجتماعية المخططة وجرى وضع وتنفيذ ست خطط خمسية ، ازداد خلالها الدخل القومي والثروة الوطنية وتكوين رأس المال الثابت ومساهمة القطاع الصناعي في الدخل واقامة المشروعات وغيرها وغيرها .

اذ ارتفع الدخل القومي :

ـ من (٣٦١٢) مليون ليرة سورية عام ١٩٦٠ الى (٤٩٢٦) مليون ل.س عام ١٩٦٩ .

ـ ومن (٥٥٣٠) مليون ل.س عام ١٩٧٠ حتى (١٧٨٠٨) مليون ل.س عام ١٩٧٥ .

ـ ومن (٢٣٣٢٥) مليون ل.س عام ١٩٧٦ الى (٦٥٧١٠) مليون ل.س عام ١٩٨٢ .

من يتأمل يرى التقدم الهائل الذي حصل .

وكذلك ارتفع الانتاج الاجمالي من (٦٤٧٣) مليون ل.س عام ١٩٦٣ الى (١٥٣٧١٨) مليون ل.س بالاسعار الجارية عام ١٩٨٦ اي اكثر من ٢٣ ضعفا .

مشاريع التنمية

اما على مستوى المشروعات ، فلقد تم تنفيذ العديد من المشروعات الانمائية في الفروع الاستخراجية والتحويلية والكيماوية والهندسية والنسيجية والغذائية والخدمية الاساسية والطرق والسكك الحديدية والمزارع يأتي في طليعتها كبريات المشاريع الانمائية في العالم الثالث في مقدمتها :

١ ـ مجمع الفرات العظيم بكل مراحله (بناء السد توليد الطاقة الكهربائية ، ارواء الحوض الفراتي واستثماره) وهو مشروع عجز العهد البرجوازي حتى عن التعاقد عليه .

٢ ـ استثمار النفط وطنيا الذي يعتبر تجربة رائدة في وطننا العربي وهو مالم يجرؤ ان يفكر فيه العهد البرجوازي .

فلقد اصبح لدينا حقول نفطنا في السويدية والرميلان والجبسة وكراتشوك ومصافينا في حمص وبانياس ومستودعاتنا في كل مكان .

٣ ـ مشروع الفوسفات والاسمدة الآزوتية والكيماوية .
٤ ـ مشاريع تنمية الطاقة الكهربائية للصناعة وتنوير الريف بكامله .
٥ ـ القضبان الحديدية .
٦ ـ تجميع الجرارات والمحركات .

وغيرها كثير ولكنها مشاريع عملاقة لم يكن شعبنا ليحلم بها فيما لو استمر العهد البرجوازي الاقطاعي .

منحى التعامل الاقتصادي الخارجي

ولقد نمت في حقبة العشرين عاما الاخيرة من تطور القطر الاقتصادي علاقاتنا الاقتصادية والتجارية مع جميع اطراف العالم .

ويجدر التنويه هنا بما لقيه خاصة من تشجيع الرأي العام التقدمي والبلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي لما بذله من الدعم القوي ومساعدة الصديق من خلال التعامل التجاري واتفاقات التعاون الاقتصادي والتقني على اساس المنفعة المتبادلة والاحترام ، الامر الذي عزز اقتصادنا وساعدنا على مواجهة وطأة الضغوط الاقتصادية وآزر أكبر مؤازرة في تنمية اقتصادنا سواء في الزراعة او الصناعة او التجارة او في اية ناحية اخرى من نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتقنية .

ولقد توخى التعاون الاقتصادي والفني بين القطر العربي السوري والاتحاد السوفياتي الصديق كما هو معروف ، تطوير الطاقة وصناعة النفط والري والمواصلات وكذلك اعداد الكوادر الفنية ، وكلها تسهم في تنمية الاقتصاد على افضل وجه . واتسم هذا التعاون بأهمية فائقة فيما يخص بناء مجمع الفرات الكهرمائي الذي يشمخ كاكبر منشأة في الشرق العربي كله ويمثل رمزا خالدا للصداقة بين الشعب العربي وشعوب الاتحاد السوفييتي .

كما تجلى هذا التعاون في مضمار التنقيب عن النفط واستخدامه مما اتاح بناء فرع صناعي جديد ، صناعة استخراج النفط وطنيا ، اذ بلغ الانتاج في الاعوام الاخيرة ما يفوق على ٩ ملايين طن .

المهام الاقتصادية الراهنة

وعندما ننتقل من هذه المنطلقات والتحولات التي رسختها الثورة الى صعيد التطبيق والممارسة في القطر العربي السوري نجد أن هنالك مجموعة من المهام الاقتصادية العاجلة لتصحيح الوضع الاقتصادي العام تنتظر جهود الدولة والشعب من اجل النهوض بها في المحاور الرئيسية التالية على جبهة التنمية الاقتصادية والاجتماعية المخططة بحيث تكون زيادة الانتاج البؤرة المركزية فيها وهي :

ـ محور انهاض الزراعة والوصول بانتاج الحبوب والاعلاف واللحوم والالبان والفواكه والخضار والزراعات الصناعية الى مستوى تلبية الحاجات المتزايدة وذلك عن طريق اجتذاب الاستثمارات الجديدة والايدي العاملة المؤهلة بشتى السبل . اذ ان تطبيق شعار اولوية الزراعة يقتضي العناية بمشاريع الري وتحسين أداء الاشخاص والمؤسسات والشركات العاملة في الزراعة وتأمين مستلزمات الزراعة في جميع مرافقها النباتية والحيوانية وايصال نتائج التقدم العلمي والتقني لربوعها .

ـ محور زيادة الانتاج الصناعي والوصول بالمصانع والمعامل الى الطاقات الانتاجية المثلى ورفع كفاءة العاملين فيها وتحسين الانتاجية وتخفيض تكاليف الانتاج ورفع مستوى جودة الانتاج وتنويعها واعدادها التصدير التنافسي وتصنيع المواد الزراعية الوطنية بوتائر أعلى لا سيما الاقطان والمواد المحلية الاخرى .

ـ محور استثمار الثروات المعدنية والطاقات النفطية والكهربائية ورفع مردود الانتاج والبحث عن مصادر جديدة للطاقة ، اذ أن الطاقة وترشيد استخدامها واستهلاكها جزء من المهمات الوطنية الملحة في هذه المرحلة من حيث أنها تشكل القوة المحركة لعجلة الاقتصاد ودواليب الصناعة .

ـ محور تشجيع الادخار المحلي ورؤوس الاموال الوطنية المقيمة والمغتربة والعربية وتوجيهها للاستثمار في المجالات الانتاجية الزراعية والصناعية وبافساح المجالات أما جميع الجهود المنتجة والمبادرات الانتاجية وتوفير المزيد من التشجيع والضمانات والتسهيلات والفرص.

ـ محور تنشيط التصدير وتجديد النظر في سياساته واجراءاته بما ينسجم مع زيادة الموارد من القطع الاجنبي وقدرة الاقتصاد التصديرية والتوجه نحو التوازن في مبادلاتنا الخارجية وترشيدالاستيراد ومعالجة قضايا الاسواق والتجارة .

ـ محور تمتين النقد الوطني وترشيد الطاقة والاستهلاك .

ـ محور اصلاح الادارة الاقتصادية العقلانية والنزيهة على جميع المستويات وتحسين الاداء الاداري والبشري في مواقع العمل والانتاج .

ـ واخيرا محور حل قضايا الطبقات المنتجة والقوى البشرية العاملة في مسائل الاجر والحوافز والاسعار والفوائض والدخول وجودة المنتجات وتوفيرها .

وكل ذلك يستلزم مبادرات ابداعية من الدولة والجماهير الكادحة والطليعة الثورية والتفاف شعبي واسع ومشاركة ديمقراطية عريضة .

ثورة المستقبل

افلحت الثورة حين ادركت منذ البدء انه لا سبيل للخلاص الا بمواجهة المشكلات الاقتصادية في العمق بكل الابعاد ، سواء على مستوى تعديل البنيات وتغيير علاقات الانتاج واعادة تنظيم الاقتصاد او على مستوى التنمية وسير العمل والسياسة الاقتصادية .

والثورة ادركت منذ البدء انه لا يمكن تجاهل عوامل الاقتصاد ولا القفز فوق سننه وموجباته فهو يخضع لقانون الامكانات المتاحة والحركة المحسوبة بالارقام وقوى الدفع المتوازنة اذ تؤطره أوضاع وبنيات وقوى وظروف عامة داخلية وخارجية تتحكم في سيرورته بدءا من الانتاج صناعة وزراعة وحرفة ومرورا بالتبادل والتوزيع استيرادا تصديرا وتجارة في الداخل والخارج ، وصولا الى الاستهلاك والاستثمار وتنمية موارد الاقتصاد وثروة المجتمع .

وفي ذلك الجزاء معروف ، فالمكافاة فيه تحسين الانتاجية والريعية والربحية وزيادة الانتاج والدخل ورفع مستوى المعيشة لاوسع الجماهير وتوفير المواد وتجديد نمط الحياة ، والقصاص فيه ركود وخسارة

وافلاس وأزمات وتضخم وغلاء وتدهور قيمة العملـة وفقـدان المواد والبطالة والجوع ناهيك عن استمرار التبعية للخارج .

لذا كانت الثورة على حق حين حلت المسألة الزراعية لصالح الفلاح والمالك الصغير وباشرت الاصلاح الزراعي ونظمت العلاقات الزراعيــة ، وكانت على حق حين اممت المؤسسات الصناعية والشركات ولو انهـا كانت قليلة العدد . صغيرة الحجم ، قليلة التجهيز والتكوين الرأسمالي. وكانت على حق حين انشأت المشاريع الجبارة في الصناعة والري والنفط والطاقة والمواصلات والخدمات وأطلقت قوى الانتاج الجديدة من عقالها فأنهضت الطبقات الكادحة والفعاليات الاقتصادية .

كما كانت الثورة على حق ، حين أقلعت عــن النظرة الرومانسية والطوباوية ضد تناول مشكلات التطور الاقتصادي اذ ليـست المسألة هنا مسألة شعارات لاهبة وأناشيد حماسية وبيانات خاوية بل قضية خطط تنمية اقتصادية ومشاريع انتاج وبرامج عمل ومعالجات موضوعية علمية عقلانية لواقع الاقتصاد والدولة والمجتمع تعود بالخير على جميـع المواطنـين .

الا أن الحق يقال ، نشأت ظروف مستجدة أفرزتها بعض الممارسات الخاطئة في الميدان الاقتصادي . التي انعكست على بعض مناحي الوضع الاقتصادي وعلى كفاءة الاقتصاد اضافة الى آثار الازمــة الاقتصادية العالمية وتأثيراتها المتعددة

وعلى اي حال ، بمناسبة احياء ذكرى خمسة وعشرين عاما من عمر الثورة ، اصبحت الثورة مع تقدم التجربة والزمن ، مطالبة أكثر مــن اي وقت مضى ، بتوضيح نظري اوفى للرؤية الثورية الاشتراكية فـي تطوير الاقتصاد والمجتمع لتكون نموذجا يحتذى في الوطن العربي مــن المحيط الى الخليج ، مالم تقل في العالم الثالث . وبات عليها أن تطـور نهجها العملي وتطهر ممارساتها بما يعزز موقع قطرنا كقاعـدة انطلاق للثورة العربية القومية الاشتراكية .

ولكي تكون المرحلة المقبلة مرحلة استلهام الدروس المستفادة ، بل لكي يتم التجاوب مع الامال العريضة التي حملتها قوى الثورة وحال التطور الاقتصادي السلبي دون ان يكون بالمستطاع تحقيقها لابد من مبادرة تاريخية خلاقة وفعل حقيقي تجدد بهما الثورة شبابها وحيويتها وشعبيتها عن طريق الالتزام ببرنامج تنموي محدد قابل للتطبيق ضمن الامكانات المتوافرة وقادر على النهوض بالاقتصاد الوطني ويحرك جميع القوى المنتجة ويستقطبها ويفجر طاقاتها في جميع القطاعات والانشطة والاصعدة .

وذلك يعني في الميدان الاقتصادي أن تستهدف الثورة تعزيز وزيادة المنجزات الايجابية والتخلص من جميع الظواهر السلبية ، كما تعني القيام بخطوات جديدة لصيانة القاعدة الاقتصادية المتينة التي ارستها خطوات تقوم على الاستخدام الامثل لجميع الموارد والطاقات والامكانات المتاحة المادية والبشرية والمالية بهدف تلبية اكبر قدر ممكن من حاجات الجماهير الشعبية الواسعة وتوفير مستلزمات التنمية والدفاع .

ويمكننا القول : لقد اعترضت ثورة الثامن من آذار تحديات ضخمةفي الداخل والخارج ، وواجهت القوى المضادة مواجهة شاملة على جبهات عدة . ولم تكن الجبهة الاقتصادية بأشدها احتداداً او ضراوة اذ جابهت الثورة ضغوطا وصعوبات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية . وخاضت حروبا ومعارك . وفي كل ذلك تأثرت بضرورات الطبيعة والجغرافيا والتاريخ ومراحل التطور وتقلب الاوضاع الدولية والعربية ومختلف الظروف الموضوعية والذاتية . قد اطلت ثورة الثامن من اذار قبل ربع قرن على انها انجاز قومي عربي كبير ولا سبيل امامها الان الا ان تهيء من جديد فرص تحقيق طموحات الشعب العربي التي نادت قوى الثورةبارسائها على درب الوحدة والحرية والاشتراكية .

المراجع والمصادر

- دستور حزب البعث
- بعض المنطلقات النظرية . حزب البعث العربي الاشتراكي .
- المنهاج المرحلي للحكم .
- القرارات الاشتراكية . الجريدة الرسمية . دمشق .
- خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتقارير تتبع التنفيذ . دمشق .
- المجموعة الاحصائية . دمشق .
- مجلة الإقتصاد . دمشق .
- تجربة الكاتب .
- مشاهدات حية .

* * *

الثورة
في ربيعها الخامس والعشرين
محاولة تقويمية

الدكتور جورج جبور

أولا — تمهيد :

اذ تنهي ثورة آذار هذه الأيام ربيعها الخامس والعشرين يحسن بنا ان نقف معها وقفة موضوعية ، نرصد بها ايجابياتها وحدودها بل وسلبياتها ، على صعد ثلاثة : قطرية وعربية وعالمية .

ولكي تكون وقفة التقويم هذه منسجمة مع طبيعة ثورة آذار ، التي جاءت نتيجة فكر اثمر سياسة ، لابد ان يكون لمحاولتنا جانبان : جانب فكري من حيث ان ثورة آذار وليدة البعث العربي ، بعث بدأ فكرة وتطور الى حزب ، ثم اصبح الى جانب الفكرة والحزب مجسدا في دولة ، وجانب سياسي من حيث ان ثورة آذار سيطرت على سياسة قطر عربي هام هو القطر العربي السوري .

وبهذا التصنيف الذي أسلفنا يكون لنا في محاولتنا التقويمية اجزاء ستة نعالجها بالترتيب ، قطريا وعربيا وعالميا ، مبتدئين بالجانب الفكري أولا ثم بالجانب السياسي غير غافلين طبعا عن علاقة التفاعل الوثيقة بين الفكر والسياسة ، وعن علاقة التفاعل الوثيقة ايضا بين القطري والعربي والعالمي بما ينعكس سلبا في الحالين على « نصاعة » التصنيف .

ثانيا : على صعيد القطر :

١ ــ فكريا :

ثورة آذار نتاج طبيعي للظروف العربية عامة ولظروف القطر خاصة هذه الظروف التي ولدت فكرة البعث هي ظروف التجزئة العربية المتفاعلة والمتناسبة طردا مع الضعف العربي . ومن المعروف انه كان لسورية الطبيعية (من بين بلاد الوطن العربي) النصيب الاوفر من التجزئة ، اذ ما ان القت الحرب العالمية الاولى اوزارها حتى كانت سوريا الطبيعية هذه مجزأة الى أربعة كيانات هي سوريا الراهنة ، ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن .

ظروف التجزئة هذه اعطت فكرة البعث أول واهم اهدافها القومية وهو هدف الوحدة العربية .

ولما كانت ظروف التجزئة مرتبطة بظرف الاستعمار الغربي وبظرف واقع التخلف العربي العام فقد تحدد هدفان آخران الى جانب هدف الوحدة وهما هدف الحرية والاشتراكية .

ولم يكن تحديد أهداف الوحدة والحرية والاشتراكية اهدافا للعمل القومي العربي وفي طليعة العمل السياسي نتيجة عملية ابداع خارقة للعادة . فالمتابع لادبيات الفكر السياسي كما تطور بعض اقطار وطننا العربي وفي سوريا بالذات يستطيع ملاحظة ان هذه الادبيات كانت

حافلة بالدعوة الى الوحدة والدعوة الى الحرية والتحرر من الاستعمار وبالدعوة الى مزيد من العدالة الاجتماعية . وهكذا كانت فكرة البعث وليدة طبيعية لظروف القطر ولتطورات فكره السياسي .

صحيح ان ما قلناه سابقا لم يكن واضحا الوضوح كله لدى بدايات فكرة البعث فقد كان القطر ميدانا لتيارات فكرية مختلفة ومتصارعة ، الا ان استقرار الغلبة لفكرة البعث منذ منتصف الخمسينات وحتى الان وما نستطاع ملاحظته من ان هذه الفكرة ستظل الغالبة في المستقبل المنظور ، يجعلنا محقين اذ نقول ان فكرة البعث انما كانت وليدة طبيعية لظروف القطر وتطورات فكره السياسي .

ولا ريب ان قيام جبهة وطنية تقدمية في القطر ، مطلع الحركة التصحيحية ، تتبنى اهداف الوحدة والحرية والاشتراكية انما هو مؤشر بالغ الاهمية على ان اهداف العمل القومي كما حددها البعث العربي الاشتراكي اصبحت اهداف كل العاملين السياسيين في القطر رغم الاختلاف التاريخي (ونقصد : الاختلاف الماضي) في الجذور الاولى لمنابعهم الفكرية .

واليوم ، وبعد خمسة وعشرين عاما من ثورة آذار يظل مفهوم الوحدة العربية المفهوم الاساسي الذي تتركز لخدمته ادبيات الفكر السياسي في القطر رغم انحرافات التفكير التجزيئي لدى بعض العرب وما انتجت هذه الانحرافات على صعيد السياسة العربية من اتفاقات كامب ديفيد وما يشبهها . بل ويمكن القول ان نجاح البعث في « الحجر » على كامب ديفيد « واجهاض » اتفاق الاذعان (١٧ / ٥ / ١٩٨٣) انما اعطى دفعا جديدا لفكرة الوحدة العربية .

وبالنسبة لمفهوم الحرية في معناه كتحرر وطني فقد عززت ثورة آذار هذا المعنى رغم اشتداد الهجمة الامبريالية على القطر في اعقاب كامب ـ ديفيد وغزو لبنان . وفي اطار هذا التعزيز كانت معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٠ .

ولمفهوم الحرية عند البعث معنى آخر هو حرية المواطن . واذا كان الحزب في بداياته مال الى التفسير الليبرالي لحرية المواطن الا ان هذا التفسير الليبرالي سرعان ما اخذ يخبو مع استلام الحزب زمام الامور في القطر . وكان هذا التغيير في فهم معنى حرية المواطن منسجما مع ما جاءت به ثورة آذار من مخططات لاعادة تنظيم المجتمع على نحو يكفل للمواطن حاجاته الاساسية في ظـل نظام سياسي مستحدث هو نظـام الديموقراطية الشعبية .

أما مفهوم الاشتراكية فقد اقترن في فترة بدايات البعث كحكم بتأميم سيطرة الراسمال والاقطاع على الحكم وعلى آليات المجتمع . وجاء التأميم خطوة لا بد منها لتحقيق « التوازن النفسي » بين المواطنين . وبعد الحركة التصحيحية اتجه الجهد نحو تحقيق وتائر تنمية متصاعدة من حيث انه لا اشتراكية دون تنمية . واذا كان للعملية التنموية آلامها العميقة اقتصاديا ونفسيا (وفي قطرنا الآن شواهد على هذه الآلام اتخذ مجلس الشعب مواقفا منها وتفصح عنها صحف القطر بشكل موسع) الا ان الناظر الى مجمل نتائج العملية التنموية التي يسير بها القطر لا بد له الا ان يلحظ الاصرار المعلن على بناء هـذه العمليـة على قاعدة من الاشتراكية . وفي هذا الاطار اطلق الرئيس حافظ الاسد شعارا فذا حين نادى باقامة مجتمع الطبقة الواحدة ــ واطلاق هذا الشعار اشارة الى تطورات « طبقية » معينة ــ .

٢ ــ سياسيا :

تجاوز عمر ثورة آذار ثلاثة اخماس عمر سوريا الاستقلالي وباعتبار ان القطر فتي في تطوره السكاني فمعنى ذلك ان ما يقرب من ثلثي سكانه انما فتحوا أعينهم للنور في عهد الثورة . أهم ما تميزت به ثورة آذار سياسيا هو هذه الاستمرارية التي لم يشهدها القطر في تاريخه السـابق للثورة حتى أنه في عام واحد هو عام ١٩٤٩ تعرض حكم القطر لثلاثة انقلابات عسكرية . ومما يلفت النظر في التطور السياسي للقطر قبل

الثورة أن أطول فترة استقرار سياسي كانت تلك التي تقع بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٨ . ويلاحظ في هذه الفترة سيطرة فعلية لفكر البعث لا سيما في شؤون السياسة الخارجية طيلة الفترة من ١٩٥٥ وحتى ١٩٥٨ كما يلاحظ أن قيام الوحدة بين سورية ومصر انما كان عملا سوريا اساسا وعملا بعثيا بوجه خاص يجسد على نحو ممتاز توجه البعث الوحــدوي .

واذا كان من الصحيح أن مرحلة ثورة آذار شهدت هي الاخرى عهودا ثلاثة امتد الاول منها قرابة ثلاث سنوات وامتد العهد الثاني أكثر من اربع سنوات الا ان العهد الثالث الذي ابتدأ يوم ١٦ / ١١ / ١٩٧٠ وما يزال مستمرا وما يزال يحظى بامكان استمرار غير محدود يمثل وحده حتى الآن ثلاثة ارباع المرحلة التي تعيشها ثورة آذار ، ويمثل وحده أيضا ما يقترب من نصف تاريخ القطر الاستقلالي . وهكذا يبدو واضحا أن التغيرات السياسية في تاريخ ثورة آذار كانت أقل تواترا مما سبق من تغيرات سياسية في تاريخ ما قبل الثورة . كذلك يبدو واضحا ان الخطوة التركيبية (الثالثة) في عصر ثورة آذار ، المستمرة والمتوقع استمرارها الى اجل غير محدود انما تمثل إمرا فريدا جدا في كل تاريخ القطر الاستقلالي ، بل وفي كل تاريخه الحديث اذ لم يسبق للقطر ان شهد منذ ايام الامويين استقرارا (واستقلالا) في الحكم يماثل استقراره (واستقلاليته) في ظل الحركة التصحيحية بقيادة الرئيس حافظ الاسد . وللاستقرار في الحكم فضائل كبرى . فمن فضائله أنه بدونه يستحيل بناء الدولة . ومن المفيد في هذا المجال القول ان وجه سوريا الطبيعي (أي الجغرافي) تغير في ظل ثورة آذار لا سيما في ظل الحركة التصحيحية . وتلك ظاهرة صحة وعافية يشهد بها الغريب قبل القريب والاجنبي قبل المواطن والسائح قبل المقيم حتى ليصح القول ان « سوريا جديدة » ولدت مع نضج ثورة آذار .

وما كان لهذا الاستقرار في الحكم ان يبلغ لولا أن في ثورة آذار حيوية فكر ورحابة أفق واتساع وعي اتاحت مجتمعة لها قدرة على تكيف غير مقيد متوائم مع التطور السكاني والمجتمعي .

ففي ظل ثورة آذار توسعت « العملية السياسية » فلم تعد وقفا على نخبة من محظوظي ابناء المدن الكبرى يواكبهم عدد اقل من محظوظي ابناء الريف . بل ان « العملية السياسية » في ظل ثورة آذار انعتقت من اطار « النخبة الوارثة » وانفتحت على مصراعيها امام جميع ابناء الشعب فلم يعد ثمة حاجز يصعب اقتحامه على من لديه القدرة على المساهمة في مصير قطره وامته والارادة لتنفيذ هذه القدرة .

في عهد ثورة آذار تسيس الناس ، كل الناس ، الا من اختار منهم اغلاق نوافذ بيته اغلاقا محكما . بل لعل التسيس تسرب مخترقا حتى النوافذ محكمة الاغلاق . بكلمات اخرى : كان الخوض في « العملية السياسية » قبل ثورة آذار يقتضي من ابناء الجموع غير الوارثة شجاعة فائقة يتمتع بها من يتمتع بقدرة قيادية طليعية رفيعة . اما الآن فلا يستطيع ان يبقى خارج اطار العملية السياسية الا من اختار عمدا ان يبقى خارجها . واختيار هؤلاء المتعمد للبقاء خارج اطار العملية السياسية للقطر يفصح عن اختيار متعمد للبقاء خارج اطار الوطن ككل .

•

كذلك ما كان للاستقرار في الحكم أن يبلغ لولا ما بذلته ثورة آذار ، لاسيما في عهد الرئيس حافظ الاسد ، من اهتمام بعماد الدولة الحديثة الذي هو الجيش . وهنا علينا ملاحظة امور ثلاثة اولها ان الجيش في البلدان النامية هو احد الادوات الرئيسية للتغيير السياسي . وثانيها ان نكسة عام ١٩٦٧ سريعا ما تلتها في اعقاب الحركة التصحيحية حرب تشرين المجيدة التي هي بحق انتصار عسكري بارز في كل تاريخ القطر والامة العربية (رغم ادراكنا الحدود الفعلية لهذا الانتصار) . اما الامر الثالث الذي يجب قوله هنا فهو ان عملية « التوازن الاستراتيجي » التي ينهض بها الرئيس الاسد ثبتت للجيش وللقطر وللامة العربية آفاقه التقليدي وجددته وصقلته في مجابهة الصهيونية رغم « تيئيسيات » كامب ـ ديفيد . هذا الافق جعل دمشق قبلة العربُ الاولى .

ثالثا ـ على الصعيد العربي :

١ ـ فكريا :

يتفرد حزب البعث عن غيره من الاحزاب العقائدية في الوطن العربي انه الوحيد فيها الذي وصل الى الحكم في قطرين عربيين أساسيين هما العراق وسوريا . واذا كانت تجربة وصول البعث الى حكم العراق في ٨ / ٢ / ١٩٦٣ شهدت تقطعا كما شهدت انحرافا بل انحرافات ، فان تجربة استلام البعث حكم سورية كانت وما تزال تجربة مستمرة وغنية ومبدعة . وكان لهذه التجربة من ذاتها ما سمح لها بتصحيح مسارها .

ولتفـرد حزب البعث في الوصول الى الحكم دلالة مؤداهـا أن « تشخيص » الحزب فكريا لمنحى التطور السياسي العربي كان تشخيصا سليما طابقت به الذات (الفكر) الموضوع (السياسة) .

ولنلاحظ أن البعث حين جعل الوحدة هدفا اول فانما كان يشير بذلك الى أنه عربي الهوية قبل كل شيء اذ لا يمكن له أن يكون في آن واحد وحدويا وقطريا معا . فبين الوحدوية والقطرية تناقض منطقي وليس بين الحرية والقطرية او بين الاشتراكية والقطرية مثل هذا الوضوح المنطقي في التناقض . وحدوية البعث تفرض عليه اذن ان يتجه الى العرب اذ من خلالهم ومن خلالهم فقط يمكن له تحقيق ذاته .

والحق ان حكم ثورة آذار أبقى قضية الوحدة العربية حية قوية . فالوحدة في ظل حكم الثورة انما هي شعار مرفوع دائما حتى لكان سوريا انما هي قطر الوحدة . واذا كان احتفاء البعث فكريا بالوحدة انما تركز في بيانات وخطب فمن الحق ان نذكر أن الوحدة كانت موضوع اول ندوة فكرية تقيمها القيادة القطرية ، منذ بدأت القيادة القطرية تقيم ندوات فكرية . وكما قلنا في مناسبات سابقة كثيرة فمن « الدراسات التي ينبغي أن تضطلع بها المؤسسة الحزبية في هذا القطر دراسة عن

مقدار تواتر الدعوة للوحدة العربية فيما صدر عن القطر منذ قيام ثورة آذار وعن تصور ثورة آذار للكيفية التي يمكن بها تحقيق الوحدة » .

ويسجل لحكم ثورة آذار انه جدد الدعوة للوحدة كرد على أفدح نكستين تعرضت لهما الامة العربية في تاريخها بعد الانفصال ، وهما نكسة حزيران عام ١٩٦٧ ونكسة توقيع اتفاقيتي كامب ـ ديفيد في ايلول ١٩٧٨ .

كذلك يسجل لحكم ثورة آذار انه فرض « حلولا وحدوية » في كل مرة جرى بها تهديد الهوية العربية رغم ان ما استطاع فرضه من حلول وحدوية كان دون مستوى المطلوب فكريا . والحق انه يمكننا النظر الى دور ثورة آذار في ترسيخ مفهوم الوحدة على الصعيد العربي ضمن الاطر التالية :

١ ـ مارس حكم ثورة آذار وبمواجهة الناصرية التي تغذت منه فكريا ريادية فكرية رائعة حين جعل احدى أهم مسلماته الوحدوية مسلمة للفكر السياسي الوحدوي كله ونعني بذلك مسلمة ان « الوحدة ثورة » وهكذا فبحسب حكم ثورة آذار استقر في الفكر الوحدوي العربي ان للوحدة مضمونا اجتماعيا تقدميا . ونستطيع قراءة هذه المساهمة في ميثاق / ١٧ / نيسان الوحدوي .

٢ ـ ادخل حكم ثورة آذار على الفكر الوحدوي شيئا من اتجاهه القومي الناظر الى الدين الاسلامي والديانات الاخرى كقيم روحية عليا . ويعلم مواكبو الحركة التصحيحية انه لدى انعقاد اجتماعات قيادة الحركة وقيادتي الجمهوريتين العربيتين الليبية والمصرية في عام ١٩٧١ لصياغة دستور اتحاد الجمهوريات العربية كان ثمة نقاش مستفيض حول موضع الدين الاسلامي في الدستور . ونجحت قيادة الحركة التصحيحية في اقناع القيادتين المحاورتين ان من الانسب قوميا عدم ايراد نص يجعل الاسلام دينا للدولة بل وضع نص تم تبنيه في الدستور هو التالي :

« مادة / ٦ / : تؤكد دولة الاتحاد على القيم الروحية وتتخـذ الشريعة الاسلامية مصدرا رئيسيا للتشريع » .

٣ ـ طرح البعث مبكرا في تاريخه فكرة انشاء جامعة شعبية عربية تكمل جامعة الدول العربية . ثم طرح حكم ثورة آذار فكرة عقد مؤتمر للقوى والاحزاب التقدمية كبديل أو كتكملة لمؤتمرات القمة . وهذا الخط من التفكير أصبح موضع مقبولية عربية عامة وتجسد في قيام مؤتمر الشعب العربي .

٤ ـ نظام مؤتمرات القمة انما ابتدا بسبب من ثورة آذار . اذ لما كانت فلسطين هم البعث الاول منذ البدايات فقد رات قيادة ثورة آذار منذ صيف ١٩٦٣ اثارة قضية العرب الاولى بكل ابعادها وفي كافـة المجالات . ضمن ظروف الثورة السورية ـ الفلسطينية بمواجهـة « اسرائيل » لتحويل مياه الاردن ، قام عبد الناصر بتوجيه دعوته لعقد مؤتمر قمة . وبالفعل عقد المؤتمر ضمن جو تحفظ سوري رغم ان قطرنا ساهم فيه وعلى أعلى مستوى . ويعلم المتابع اننا كحزب رفعنا آنذاك شعار « التحرير » لا « التحويل » ونجحنا في جعـل مقررات المؤتمر لا تحيد عن الحق العربي قيد أنملة . هذا الدور الذي لعبته ثورة آذار في مقدم نظام مؤتمرات القمة متكامل مع الدور الذي لعبه الاستقلال السـوري في عقد مؤتمر انشاص وما تبعه من عقد مؤتمر بلودان .

٥ ـ اذا كانت مؤتمرات القمة اتت بنوع من التضامن العربي فان حكم ثورة آذار جاهد ليحافظ على نضالية هذا التضامن وبلغ في هذا الامر شأوا جعـل من الممكن له أن يقف في وجه جميع الطروحـات الاستسلامية التي حاول البعض ترويجها في هذه المؤتمرات .

ويرتبط بمفهوم الوحدة عربيا معنى مفهوم الحرية كتحرر وطني . ومن المؤكد ان تمسك حكم ثورة آذار بالتحرر الوطني على الصعيـد العربي كان له أثره الكبير في الحفاظ على قضية فلسطين حية بأساسياتها.

ولن ينكر هذا القول الا مكابر . ونحن اذ نكتب في زمن تصاعد الانتفاضة المباركة التي يبذل ابناء فلسطين والجولان دماءهم في سبيلها لا نستطيع الا قبول ما تقول به كل وسائل الاعلام في العالم من ان القطر يتحمل المسؤولية الاولى في هذه الانتفاضة لانه أبقى جذوة الرفض العربي للصهيونية مشعة بل وملتهبة . وليس من قبل المبالغة القول (باجمال) ان ما هو « سياسة » تحرر وطني في القطر انما هو « تمنيات » ليسار اليسار العربي في معظم اقطار الوطن العربي .

ويتبدى حكم ثورة آذار فكريا على الصعيد العربي في ايضاح التلازم بين النضالات الوحدوية والتحررية والاشتراكية . وقد فتحت ثورة آذار اذهان كثير من المناضلين العرب الى حتمية هذا التلازم فكريا والى واقعيته عمليا .

٢ ـ سياسيا :

ليس لأحد ان يجادل في ان ثورة آذار كان لها فضل قيادة العرب فيما يختص بقضية فلسطين التي هي عنوان معظم السياسة العربية وحدويا وتحرريا . ولا فيما يختص بأهم تفرعين لهذه القضية وهما مسألة لبنان ومناهضة كامب ـ ديفيد .

واذا كنا أشرنا فيما سبق الى دور الاستقلال السياسي للقطر في قمة انشاص ، ودور قيام ثورة آذار في بدء نظام مؤتمرات القمة فان مغزى ما جرى منذ الحركة التصحيحية هو ان قيادة العرب انتقلت ، عبر ميكانيكيات بالغة التعقيد من قطر هو الاول جيوبوليتيكيا الى قطر آخر استعاض عن الجيوبوليتيك العندي الطبيعي بارادة صلبة وضع لها عنوانا هو تحقيق التوازن الاستراتيجي بمواجهة العدو الصهيوني . ونجح هذا القطر ـ قطرنا ـ في جعل تحقيق هذا التوازن سياسة عربية تبنتها قمة عمان ، ويؤمل لهذه السياسة أن تكون عاصما للعرب من زلات وخيانات نموذجا كامب ـ ديفيد .

لقد احتفى الشعب العربي الحفاوة كلها بمولد الزعامة العربية الحقيقية في تاريخها المعاصر مع النجاح الدبلوماسي الذي حققه جمال عبد الناصر أثر العدوان الثلاثي على مصر . أما الآن فثمة مرحلة جديدة في الزعامة العربية بطلها حافظ الاسد ويمكن أن تطلق عليها اسم مرحلة النضج . وبفضل هذه الزعامة أوقف مد كامب ـ ديفيد ليس على الصعيد العربي فحسب بل على صعيد مصر بالذات ، وألغي اتفاق الاذعان ، ويجري الآن تطويق حرب الخليج . ومن ميزات هذا النضج انه ينجـز وانه يستقطب (وقد نجح على نحو مبدع في استقطاب الجماهير العربية والنظم العربية معا) وانه يوظف هذا الاستقطاب لما فيه المناهضة الجدية للصهيونية . ويكفي بطل مرحلة النضج في الزعامة العربية انه وحتى تاريخه كان الاول ، والوحيد من بين كل الزعماء العرب الذي أثار وفي أعلى وأعرض منبر دولي ساهم فيه قضية ضرورة حشد الجهد لدعم قرار الامم المتحدة رقم / ٣٣٧٩ / المساوي بين الصهيونية والعنصرية ، ولافشال مخططات الغائه . وبالطبع فقد أصبح دعم القرار / ٣٣٧٩ / سياسة خارجية معتمدة للعرب والمسلمين ، ولن يكون صعبا جعل دعمه سياسة مستمرة للدول الافريقية ولدول عدم الانحياز . وكثاني مناسبات سابقة متعددة أشرنا الى انه دعم القرار / ٣٣٧٩ / يصح عنوانا للدبلوماسية العربية في العالم طيلة المرحلة من ١٩٨٥ (حين تعالت أصوات تنادي بالغاء القرار) وحتى ١٩٩٠ (وهو الموعد الذي حددته هذه الاصوات موعدا نهائيا لالغاء القرار) وربما بعد .

رابعا ـ على الصعيد الدولي :

١ ـ فكريا :

اذا كان يصح أن نقارن البعث بالبعث الايطالي (وكان له ثالوثه في الوحدة والحرية والاستقلال ، كما كانت قاعدته بيمونت ولم تكن الدولة الاكبر بين مجموعة الدول الايطالية) وبحركات التوحد الالمانية وبالبولفاريسمو في أمريكا اللاتينية فتلك مقارنات مفيدة بلا ريب ، ولكن

من الافيد مقارنة البعث في وحدويته بحركة التوحيد الافريقية التي تزامنت معه في البدايات ومن حيث فكر البعث الخاص بمفهومي الحرية والاشتراكية يصح عقد المقارنة مع فكر التنظيمات السياسية في العالم النامي وان لم تكن لدينا معطيات خاصة بهذا الشأن .

على كل حال ينبغي القول ان البعث ، فكريا ، كان احد اول واهم ردود الفعل الواعية التي شهدها العالم النامي ضد الهيمنة التي مارستها اوروبا الغربية وامريكا على بقية العالم . ثم كان حكم ثورة آذار احد اول واهم بؤر الاصالة الفكرية في العالم النامي . نقول ما سبق رغم شعورنا بان آلية اشعاع الفكر من القطر الى خارجه لم تكن بالآلية المتقنة التي تضمن توصيلا فكريا فعالا من القطر الى بلدان العالم .

ولعل اهم ما يشهد على أثر البعث الفكري عالميا هو استطاعة حكم ثورة آذار ، وبالتحديد استطاعة الرئيس حافظ الاسد ، تعميم فهم البعث لقضية فلسطين على الصعيد الدولي . فاذا كان فهم البعث لقضية فلسطين تجسد في المادة / ١١ / من المبادىء الاساسية لدستوره ، فان هذا الفهم تمظهر في تبني الرئيس الاسد لمفهوم الاستعمار الاستيطاني الذي في نطاقه تتساوى ايديولوجيتا الصهيونية والابارتايد . خطب الرئيس الاسد في مؤتمرات قمم عدم الانحياز التي مقرها (الجزائر ١٩٧٣ وسريلانكا ١٩٧٦ وكوبا ١٩٧٩ ونيودلهي ١٩٨٣) وفي مؤتمرات القمم الاسلامية (لاهور ١٩٧٤ ، الطائف ١٩٨١ ، الكويت ١٩٨٧) حافلة بشرح مفهوم الاستعمار الاستيطاني وبشرح عنصرية الصهيونية وبالمقارنة بين هذه العنصرية وعنصرية الابارتايد . وما ينطبق على خطبه ينطبق على رسائله في المناسبات الدولية الانسانية . ويمكن القول ان قرار الامم المتحدة رقم / ٣٣٧٩ / الصادر في ١٠ / ١١ / ١٩٧٥ انما هو في جوهره صدى من أصداء فكر البعث ونتيجة لجهد الرئيس حافظ الاسد . ومما يذكر ان الرئيس الاسد كان ومنذ بداية حكمه متيقظا الى اهمية هذا الطرح وتبنى عام ١٩٧١ اقتراحا بانشاء مؤسسة لدراسات الاستعمار الاستيطاني المقارن في العالم .

٢ ـ سياسيا :

لم يكن متوقعا من حكم ثورة آذار انجاز وحدة عربية قومية وفرضها على العالم ففي امكانيات القطر المحدودة ما يقيد تحركاته ، كما ان في الوضع العربي الراهن من الوهن المفهومي ومن ضعف الارادة القيادية ومن غياب انظرة الاستراتيجية الثاقبة ما يجعل مستحيلا الاقلاع بالوضع العربي ، وبثقة ، على الصعيد العالمي .

وضمن الظروف العربية والدولية التي حكمت ثورة آذار يمكن القول ان هذا الحكم ، وبالتحديد في عهد الحركة التصحيحية استطاع القيام بانجازات لا يستهان بها على الصعيد الدولي سواء بصدد قضايا دولية أو بصدد قضايا عربية ذات بعد دولي . هذه القضايا نحصرها بخمس هي بتاريخ بداياتها :

آ ـ ففي مجال تدعيم حركة دول عدم الانحياز تميز الرئيس الاسد منذ مؤتمر الجزائر ويقف القطر الآن في طليعة دول عدم الانحياز ذات الاثر المرموق في الحركة ككل .

ب ـ وكان خوض حرب تشرين التحريرية ، حرب العرب الاولى في هذا العصر معلمة رئيسية من معالم النضال العربي ضد الصهيونية ونضال العالم ضد العنصرية (كما تجلى ذلك في احد اهم آثار الحرب وهو القرار / ٣٣٧٩ /) . وبسبب ما احاط هذه الحرب من اشكالات ساداتية كادت أن تفرغها من مضمونها أصبح واجبا على حكم الثورة أن ينشر على الملأ الحقائق الكاملة عن هـذه الحرب التي انهت اسطورة تيئيسية مفادها أن جيش الصهاينة لا يقهر ، فكانت بذلك فاتحة قهره مرتين بعدها : في لبنان وتحت وطأة حجارة ارضنا المحتلة تقذفها زنود أطفالنا الفضة .

ج ـ ويقف الغاء عقد الاذعان في لبنان معلما رئيسا آخر من معالم النضال العربي ضد الصهيونية ونضال العالم ضد العنصرية . والحق

ان كل العالم الآن ، وفي الطليعة اعداؤنا وحلفاؤهم ، يقر ليس بأهمية الدور السوري في لبنان بل وبأوليته التي جعلت كل دور آخر ثانويا .

د ـ وسبق ان اشرنا الى اهمية **تحقيق التوازن الاستراتيجي** بمواجهة العدو الصهيوني ، وبينا كيف رفع حكم ثورة آذار هذا الشعار بمواجهة الاستسلامية الساداتية وكيف اخذ بتنفيـذه منفردا متصديا لعدونا القومي حتى استطاع في ذكرى ثورة آذار عام ١٩٨٤ تحقيق الغاء عقد الاذعان (١٧ / ٥ / ١٩٨٣) . واذا كان الرئيس الاسد حين رفع هذا الشعار اعلن القطر بذاته « ندا عدائيا » لاسرائيل ، منفردا بنفسه ، فانه استطاع في مؤتمر قمة عمان تجنيد العرب جميعا ، انظمة وجماهير ، تحت هذا الشعار الذي له ايضا جانبه الدولي .

خامسا ـ نقاط ختامية :

قد يخال القارىء اننا في محاولة التقويم التي اجريناها اغفلنا جانب السلبيات في حكم ثورة آذار . مثل هذا الانطباع صحيح اجمالا الا انه محكوم بحدين . الحد الاول يتمثل في اشارات هنا وهناك وهنالك هي عناوين لامور سلبية اجبرتنا فسحة الوقت والصفحات المتاحة على ابقائها اشارات شأنها في هذا شأن معظم هذه المحاولة ، واما الحد الثاني فهو ان من الظلم لثورة آذار ان نساوي بين قائمتي ايجابياتها وسلبياتها اذ لا ريب ان قائمة الايجابيات تتفوق وبكثير على قائمة السلبيات .

★ ★ ★

٨ آذار
يوم فاصل في تاريخ سورية المعاصر

الدكتور : محمد حرب فرزات

بحلول يوم الثامن من آذار ١٩٨٨ ينقضي ربع القرن الاول من عمر الثورة العربية المعاصرة في سورية وفي غمرة الاحتفال بهذا الحدث العظيم في تاريخ الامة العربية يجدر بنا ان نقف وقفة متانية نتامل فيها معنى الحدث الكبير وموقعه في التاريخ العربي . الا ان ما سنحاول تقديمه في هذا المقال ليس تقييما للحدث بل محاولة لطرح خطوط قد تسهم في طرح مشروع محاولة للتاريخ .

اننا عندما نستعرض مراحل التاريخ العربي المعاصر ، منذ مطلع هذا القرن وحتى ايامنا هذه لا نجد يوما له من الدلالة والاثر في تاريخ القطر العربي السوري ما لهذا اليوم العظيم من الاهمية ، انه يوم فاصل في تاريخ سورية وفي تاريخ العرب المعاصر . يوم لا كالايام التي سبقته ، فيه خرجت جماهير من الشعب العربي في فجر يوم جديد ، يوم الجمعة الثامن من آذار ١٩٦٣ ، لتسدل الستار على مرحلة من التاريخ ولتشق الطريق الى ايام مجيدة تلت وتلاحقت وتصاعدت الى يوم الحركة التصحيحية ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ . هكذا قامت الثورة ، بدأت في يوم وتتابعت احداثها واتصلت حلقاتها في ايام عديدة وحمل الثوار بقوة ارادة التغيير الشامل لكل مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . وبزغ في تاريخ الوطن العربي عصر جديد عندما استطاعت اجيال البعث العربي تسلم مقدرات القيادة في البلاد للقيام باحداث تغيير جذري ايديولوجي سياسي يمكن اداة الثورة بما تتسلح به وبما تملكه من وسائل ثورية من الاقتراب اكثر ما يمكن وباسرع ما يمكن من الاهداف القومية الكبرى التي تتطلع اليها الامة العربية منذ زمن بعيد ، وهي الوحدة والحرية والاشتراكية .

اننا هنا ، لكي نتفهم طبيعة هذا التغيير الذي حدث ، ومدى عمقه ومؤداه قد يكون من المفيد استعراض ابرز مراحل النضال الشاق الذي خاضه الشعب العربي من اجل التحرر من ربقة الاستبداد التركي اولا ، ثم للتخلص من وطأة الاحتلال الفرنسي ــ الانكليزي ثانيا ، ولمقاومة الامبريالية ومحاولاتها الشرسة للتسلط على مقدرات البلاد وتوجيه سياستها ثالثا . وقد دارت على ارض هذا الوطن معارك رائعة يسجلها التاريخ في ملاحم البطولة والشرف من اجل استرداد الاستقلال وتعزيزه ومن اجل بناء صرح الدولة الحديثة على ارض سورية العربية لتنهض على دروب التقدم الى الوحدة العربية المنشودة .

واننا عندما نحاول مرة اخرى ، ان نتفهم معنى التغيير الذي حدث في سورية لا نستطيع ذلك الا من خلال منظور عربي ، لان الحركة

السياسية في سورية هي منذ البدء حركة عربية لها اهداف قومية تلخص اهداف الامة كلها ، ولها في ضمير الاجيال المتعاقبة جذور تاريخية ترقى الى اقدم العصور ، ويتداخل فيها تاريخ القطر العربي السوري بتاريخ الوطن العربي كله .

فمنذ فجر التاريخ كان لسورية كما هو حالها في ايامنا هذه مكانها المتميز في تاريخ الدول التي قامت في المنطقة ، فسورية هي احدى اقدم الدول التي قامت على وجه الارض وجدت فيها (الدولة) منذ عصر ابلا في الالف الثالث ق.م ، في الوقت الذي لم يكن فيه لدول كبرى في عصرنا الراهن وجود . وقد سعت سورية الى وحدة المشرق العربي وواجهت الاخطار التي تعرضت لها بالاتحاد وتكاتف الجهود وتشابك الايدي وتعاضد السواعد والتعاهد قولا وكتابة وعملا على توحيد الارض شمالها وجنوبها عندما اتحد الاراميون في الالف الاول ق.م (كما تذكر النصوص) الى ان استطاع العالم الآرامي ايام (نبوخذ نصر) القضاء على الكيانات المحلية المصطنعة والمنفصلة في ارض كنعان (فلسطين) ، ونجح بعدئذ في وضع اسس وحدة الحضارة والثقافة بنشر اللغة الآرامية التي بقيت قرونا عنوان وحدة المنطقة حضاريا الى ان انتقل عبء الدور الحضاري الى اللغة العربية المنتصرة .

ولئن مرت على البلاد بعدئذ ادوار طويلة حل فيها الغرباء والطارئون واختلط فيها تاريخ سورية بتاريخ الحضارات والامبراطوريات الشاملة التي فرضت سيادتها على المنطقة فقد احتفظت سورية على مر السنين بملامحها المتميزة الاصيلة .

هكذا كانت سورية العريقة نواة دول كبرى مرات متعددة في التاريخ ايام ابلا وآرام وتدمر . وحتى عندما اجتاحها الفاتحون ما لبثت حتى احتوت مطامعهم واستوعبت اهداف مغامراتهم فتكونت حول سورية الامبراطورية السلوقية السورية بعاصمتها انطاكية على نهر العاصي ، وقامت في العصر الروماني اسرات حاكمة من حمص

وحوران لتقبض على زمام الامور في قلب رومة ، واضحى الامراءالعرب الغساسنةفي الجابية وبصرى ودمشق مركز الثقل في السياسة البيزنطية في الشرق . اما عندما بزغ الفجر العربي في مطلع القرن السابع الميلادي فقد اضحت دمشق عاصمة الدولة العربية في عصر العروبة الذهبي .

ولئن مرت على سورية ادوار متلاحقة متداخلة متشابكة ، وتقلبت فيها اطوار واحوال ، فقد بقي هذا القطر العربي منذ نشأة الحركة الوطنية فيه في اواخر القرن التاسع عشر أسير تاريخه الطويل العريق الحافل حتى انطلقت الثورة القومية العربية من قلب هذا التاريخ في سبيل الحرية والاستقلال وكانت سورية في هذه الثورة قلبها النابض ودرعها المتين وجبهتها الصامدة .

سورية في التاريخ العربي المعاصر :

عندما بدات ترتسم ملامح البرنامج الاصلاحي العربي ضمنالدولة العثمانية كان على الحركة العربية الناشئة ان تحتمل عبء التدهور العثماني عسكريا وسياسيا ونتائج ضعف الدولة والصعوبات التي كانت تواجهها في تعاملها مع الاوضاع الدولية المتغيرة فيشرقي حوض المتوسط ، وابرز مظاهر هذا الضعف النفوذ الاجنبي الاستعماري المستتر والمباشر في الاراضي العربية الواقعة تحت الحكم العثماني .

وهكذا بمقابل حركة التحديث التي قامت في مصر ايام حاكمها محمد علي وابنه ابراهيم لم يقم في الدولة العثمانية اي اصلاح هام من الداخل ، بل كان الاصلاح يفرض فرضا من القوى الدولية فبعد حرب القرم (١٨٥٥ — ١٨٥٦) فرض على السلطان الاعتراف بالمساواة بين المواطنين دون تمييز لا في العرق ولا في الدين . الا أنّ التناقضات الداخلية التي كانت ترتفع حدتها الى أقصى الدرجات احيانا ، كانت

تتيح الفرصة للتدخل الاجنبي ، كما حدث عند انزال القوات الفرنسية على ارض لبنان بعد ١٨٦٠. ، لاعادة الاستقلال الداخلي لجبل لبنان ، وما اعقبه من رد الحكومة العثمانية بعد ذلك بتدعيم الحكم المركزي في سائر المناطق السورية ، فربطت المناطق الشمالية بحلب ، بينما ربطت المناطق الجنوبية بدمشق . وبقي الوضع على هذا الشكل حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) .

لقد ادت محاولات الحركة الطورانية القومية التركية لتتريك العناصر والقوميات غير التركية وصهرها في المجتمع العثماني الى تنامي الحركات القومية في معظم الولايات العثمانية . اما في البلاد العربية فقد اتخذت مناهضة التتريك طابعا خاصا ومميزا أثر تأثيرا كبيرا على بنية المنطقة ومستقبلها السياسي .

ففي اطار الحركة القومية العربية للتحرر من الحكم الاستبدادي التركي ، تكونت في بلاد الشام كلها حركة وطنية ثقافية سياسية يمكن تتبع مظاهرها من أواخر القرن التاسع عشر ، في بيروت وحلب ودمشق في داخل البلاد في القاهرة واستانبول وباريس وسائر المهجر الاوربي والامريكي ، في نشاط الادباء والمفكرين والطلاب والسياسيين والعسكريين من خلال منظماتهم وجمعياتهم ونواديهم ، فاخذوا يناضلون بمختلف الوسائل والاشكال السرية والعلنية في سبيل الاستقلال ولاسترداد حرية الوطن ولتاسيس الدولة العربية وقد تبلور هذا النزوع القومي العام في المؤتمر العربي الاول الذي انعقد في باريس (١٩١٣) لتحديد اهداف الحركة العربية ، ولوضع خطوط برنامجها في خضم التصارع الدولي لوضع اليد على الارث العثماني . وكان ابرز ملامح البرنامج في تلك المرحلة تعيين الهوية القومية العربية المميزة باللغة والثقافة والتاريخ وكانت سورية بكاملها في تلك المرحلة من مراحل الوعي القومي مصطلحا جغرافيا تاريخيا وسياسيا جمع تحت اسم واحد وحدات ادارية وقطرية شكلت فيما بعد دول سورية ولبنان والاردن وفلسطين ، وسلخت

عنه في اقصى الشمال مناطق هامة الحقت فيما بعد ضمن تسويات دولية مختلفة بحدود الدولة التركية .

وما ان اتضحت اهداف السياسة التركية آنئاك حتى ظهرت في سورية حركة مقاومة سلبية كان من مظاهرها رفض الاشتراك في الانتخابات التشريعية وبخاصة بعد ان بدا جمال باشا قائد الجيش الرابع ووزير البحرية وحاكم سورية العام سياسة البطش للقضاء على الحركة العربية في مهدها بالقضاء على رجالاتها وشبابها المناضل بالقتل والنفي والاضطهاد . وهكذا سيقت الى اعواد المشانق طليعة الحركة العربية من المفكرين والكتاب والضباط والسياسيين فيما بين عامي ١٩١٥ ــ ١٩١٦ .

لم يكن امام العرب لمواجهة الظلم والظلام الا الثورة . وهكذا ما ان اندلعت الثورة العربية في حزيران عام ١٩١٦ ، وهي محصلة جهود الحركة العربية كلها ، حتى اخذ العرب السوريون يغادرون الجيش التركي للالتحاق بصفوف قوات الثورة العربية . وقاموا بمجهود حربي كبير اثر كثيرا في مجرى الاحداث وتطوراتها فتعطلت مواصلات الاتراك وامداداتهم من العقبة على البحر الاحمر الى كيلكية على سفوح طوروس ، بينما اشتعلت الثورة في جبال اللاذقية وحوران والبقاع . وبعد الهزيمة الحاسمة التاريخية التي لحقت بالاتراك في عام ١٩١٨ ، في سهول فلسطين الشمالية ، اضطرت القوات التركية الى مغادرة سورية وطلبت الهدنة بعد احتلال دام اربعة قرون (١٥١٦ ــ ١٩١٨) في ذلك المنعطف التاريخي وفي تلك المرحلة الحرجة من مسيرة النضال العربي تجلت ارادة سورية العربية في الوحدة لاول مرة في تاريخها المعاصر في اعلان الدولة العربية السورية الحرة الموحدة المستقلة في يوم الثامن من آذار ١٩٢٠ وذلك في اول مؤتمر سوري انعقد في دمشق (في قاعة اجتماعات المجلس بساحة الشهداء ــ المرجة) وبحضور ممثلين عن الشعب في بلاد الشام كلها : سورية ولبنان وفلسطين والاردن والاسكندرونة .

الا ان جيوش الاستعمار قضت آنذاك على الحكم العربي في ٢٤ تموز ١٩٢٠ في وقعة ميسلون ، وسقط شهيد الاستقلال الاول يوسف العظمة في ميدان الشرف قبل ان تدخل القوات الغازية دمشق لتبديد آمال العرب بالحرية والاستقلال ومضى بعد ذلك عقدان من السنين نهض فيهما الشعب في سورية العربية يصارع في سبيل الاستقلال قوى استعمارية عاتية غاشمة استطاعت بالخداع والتآمر والقهر ان تجهز على ثمار ثورة العرب على الحكم التركي ، فحل الاحتلال محل الاستقلال والتجزئة بدل الوحدة والاضطهاد بدل الحرية ، واغتصبت الارض العربية الفلسطينية ومنحت للصهيونية الغربية واقتطعت اراض عربية اخرى ارتبطت في كل عصور التاريخ بجسم الوطن وحضاراته ، لتقديمها على مائدة التسويات الدولية الاستعمارية . وقد استطاع الشعب العربي السوري بنضاله المستمر وباتحاد كلمته ان يرفع صرح مدرسة شامخة في البطولة والفداء بمقاومة الاستعمار الفرنسي وقهره الى ان جاءت ظروف دولية جديدة بدلت الوضع القائم آنذاك وارغمت ممثلي الاستعمار واركانه على الاعتراف بسقوط الصيغة الرسمية الدولية للاحتلال المتمثلة بالانتداب على سورية ولبنان والاعتراف للبلاد بمبدأ الاستقلال ليكون لسورية وشقيقتها لبنان كيان دولي الى جانب الدول الحليفة المحاربة ضد الفاشية والنازية ولكن الشعب الذي قدم الوف الضحايا والشهداء في صراعه الدامي المرير كان عليه بعد ان قطف اول ثمار نضاله ان يتابع الشوط بعد ذلك لخوض معركة الجلاء .

وما ان انتهى الصراع الدولي الطاحن في اوربة وحوض المتوسط باندحار النازية والفاشية في ايار ١٩٤٥ حتى كشر الاستعمار عن انيابه واخذ يماطل ويراوغ في الجلاء متذرعا بالظروف الدولية لفرض شروط سياسية على البلاد تمكنه من الاستمرار في هيمنته تحت اقنعة اخرى وتجعل الاستقلال المعلن شكليا غير ذي معنى . وفي حين كان العالم يحتفل فيه بانتهاء الحرب وبدخوله في عصر جديد من السلم والامن في ظل نظام دولي جديد يعترف لشعوب الارض جميعا بالحرية والاستقلال وحق

تقرير المصير ، كان على الشعب العربي ان يخوض من جديد صراعا داميا في المشرق والمغرب وبمختلف الوسائل المتاحة لاسترداد حقوقه المغتصبة وارادته المسلوبة ولارغام المحتلين على تنفيذ الجلاء الموعود .

امتدت **معركة الجلاء** خمس سنوات ١٩٤١ ــ ١٩٤٦ الى ان رحلت جيوش فرنسة وبريطانيا عن سوريا ولبنان ، وتحقق للقطرين العربيين الاستقلال التام دون قيد أو شرط . وهكذا تأسست على أرض سورية بعد قرون من الاحتلال والقهر والصبر نواة الدولة العربية السورية التي طمحت الاجيال العربية الثائرة طويلا الى تحقيقها .

لم يكن جلاء المستعمر عن سورية في ١٧ نيسان ١٩٤٦ نهاية المطاف بل كان بداية مرحلة جديدة من النضال استمرت قرابة عقدين آخرين من السنين (١٩٤٦ ــ ١٩٦٣) اضطربت فيها الحركة السياسية داخليا بين التيارين الاصلاحي والثوري وعربيا بين التوجهات الانفصالية والقومية . ولم تنعم سورية بالا باستقلالها الوليد وهي ترقب بقلق أحيانا وبالم احيانا اخرى وبغضب ونقمة دائما نضال اقطار الوطن العربي وبخاصة فلسطين وهي تواجه الخطط والمؤامرات الاستعمارية الامبريالية والصهيونية . وبينما كان السوريون يحاولون بناء دولتهم المستقلة كانت بريطانيا تتابع تآمرها مع الولايات المتحدة وقوى الغرب الاخرى لفرض اهداف الانتداب ووعد بلفور المرسومة منذ اتفاقات سايكس ــ بيكو (١٩١٦) ، ومؤتمر سان ريمو (١٩٢٠) . بشأن تقاسم مناطق النفوذ بين الدولة العظمى المنتصرة وتوزيع مناطق الانتدابات . فوضعت الحركة العربية على محك جديد وفي ظروف مستجدة تعاظمت فيها التحديات الداخلية والخارجية

بين الجـلاء والثـورة :

بعد ان اختارت البلاد اثر تحررها من الحكم العثماني التركي النظام الملكي الدستوري ، اختارت إثر تحررها من الاحتلال الاوربي (الفرنسي ــ

الانكليزي) النظام الجمهوري . ولكن سرعان ما بدا وكأن ادارة البلاد قد انحصرت في ايدي طبقة اوليغاركية محدودة على رأسها اسرات إقطاعية كبيرة ويؤيدها رجال المال والمصارف والتجارة الذين احتفظوا بمواقعهم في الادارات والمؤسسات التي انشئت في ايام الادارة الانتدابية . .

وبرزت منذ البدء التناقضات الاجتماعية والثقافية بين الريف والمدن، وبين البدو والحضر ، قبل ان يتنامى الوعي الطبقي لدى الطبقة العمالية الناشئة لضعف المنشآت الصناعية في البلاد وقلتها آنذاك . وقد ادت هذه التناقضات وغيرها بالاضافة الى الاحساس الشديد بالمرارة لخيبة الآمال في اول صراع قومي نشب في المنطقة عند اندلاع القتال في فلسطين (١٩٤٧ – ١٩٤٨) ، الى اهتزاز النظام ، وتكشف سوء تقدير القائمين عليه وعدم تفهمهم لوظيفة الدولة الحديثة في ظل الوضع الدولي الجديد ولما تتطلبه مسؤولياتها من بناء شامل للمجتمع والاعداد المخطط لتلبية حاجاته .

وبعد تشكيل الجيش الوطني اضحت الكليات والمدارس العسكرية التي فتحت ابوابها للمواطنين من ابناء البلاد معاهد لتخريج الضباط الوطنيين المشبعين بمبادىء العروبة والوحدة والحاملين لامجاد الامة العربية وتاريخها العريق ، في حين اخذت تنمو في الساحة الثقافية والاوساط التعليمية بذور الدعوة الى بعث الامة العربية وانهاضها بتحقيق اهدافها بالوحدة والحرية والاشتراكية .

وقد تعاقبت بعد ذلك سلسلة الانقلابات العسكرية التي اختلطت القوى المشتركة في تحريكها منذ ٢٩ آذار ١٩٤٩ سعيا الى العودة للتحكم بمقدرات سورية وسياستها عن طريقها . ويكفي للتأكد من ذلك تذكر أدوار القوى الخارجية في دعم الانقلاب الاول الذي قاده حسني الزعيم ، وهي الولايات المتحدة الامريكية وفرنسة وتركية ، وتذكر أبرز (منجزاته)، خلال مدة حكمه حتى ١٤ آب ١٩٤٩وهي توقيع اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٩ ، واتفاقية امتياز مد خط انابيب النفط من شرقي الجزيرة العربية الى

البحر المتوسط عبر الاراضي السورية واللبنانية لمصلحة شركة ارامكو في ذلك الحين !

وامام التغيير الذي وقع في أسس الدولة وقواعد بنيانها ، ظهر **البعث** الذي كان يمثل الطليعة العربية الداعية الى التغيير الثوري الجذري كالقوة الشعبية الصاعدة في معترك النضال السياسي الوطني في البلاد . وطرح البعث منذ ذلك الوقت (منذ تأسيسه في ٧ نيسان ١٩٤٧) مبادئه وافكاره علانية ، ودعا الى تنفيذ برنامج للاصلاح الزراعي يطال العلاقات التقليدية البالية في ملكية الارض وطرق استغلالها ، والى إحداث انقلاب في نظام التعليم السائد ، يؤدي الى نشر التعليم وتوسيع مؤسساته .

الا ان المسألة الاساس التي كانت مطروحة على بساط البحث كانت هي الدولة بحد ذاتها وعلاقات القطر السوري بالاقطار العربية المجاورة . وحلت المسألة آنذاك بتأثير التيار الشعبي الوحدوي بالنص في دستور أيلول ١٩٥٠ على إعلان البلاد جزءا من الوطن العربي والتأكيد على اعتبار الشعب في سورية جزءا من الامة العربية . واضحت هذه المعادلة القومية صيغة اعتمدت في معظم دساتير الدول العربية فيما بعد .

وقد سعى التيار التقدمي الذي قاده ممثلو البعث في داخل مؤسسات السلطة التشريعية وفي النضال الشعبي الى تعزيز الوحدة الاجتماعية والوطنية في البلاد بتوحيد القوانين والغاء القوانين والتشريعات التي كانت صدرت عن سلطات الانتداب السابقة لخلق الفرقة ولزرع الخلاف بين المواطنين بالنص على امتيازات لبعض الفئات والجماعات .

وكان أبرز ما ميز النضال الوطني على الصعيد الداخلي في عقد الخمسينات هو هذا التنازع الدقيق بين القوى التقدمية والديموقراطية في البلاد والقوى الدكتاتورية التي وجدت سندا لها لفترة من الوقت في دعم القوى الخارجية . وفي معترك هذا النزاع برز « البعث العربي الاشتراكي » قوة متنامية فاعلة في الاحداث على رأس الجبهة الوطنية

التي عملت على إسقاط حكم اديب الشيشكلي الدكتاتوري وإعادة النظام النيابي على اسس جديدة (١٩٥٤) .

اضحى **البعث** بعد ذلك العامل الرئيس في الحركة السياسية في سورية بما كان يملكه في موقعه الشعبي من قدرة على تحريك الراي العام والصحافة وعلى صعيد السلطتين التشريعية والتنفيذية . وقد توصل بجهوده المتواصلة الى اقرار اصلاحات سياسية واجتماعية هامة ؛ في مقدمتها إقرار حق الاقتراع لمن بلغ سن الثامنة عشرة وتخفيف اعباء التعليم العام .

وأمام تعاظم التيار التقدمي والقومي في سورية والمشرق العربي تعاظم التحرك الخارجي نحو سورية التي اضحت هدفا مباشرا للتدخل الامبريالي والتآمر الدولي . وبهذه السياسة العدوانية انتقلت الحرب الباردة الى المنطقة .

بدأ التدخل الامريكي في المنطقة العربية بطرح مشروع الرئيس هاري ترومان (١٩٤٩) المعروف باسم برنامج النقطة الرابعة ، وكان هدفه الرئيسي دعم (اسرائيل) والسعي الى إدخالها في سياسات المنطقة . وينص المشروع على تقديم مساعدات بقيمة ٦٠٠ مليون دولار الى البلدان (المتخلفة) ؛ وهذا هو الاسم الذي كان يطلق على البلدان النامية ، ويقسط هذا المبلغ على سبع سنوات . وقد رافق طرح البرنامج دعم إعلامي يؤكد على ان المشروع المطروح يساعد على إحلال السلام في الشرق الاوسط ، وكان هذا الاصطلاح الاستراتيجي الدبلوماسي جديدا في ذلك الوقت .

وكان مفهوما ان الهدف من هذا التحرك هو شراء الحق العربي في الارض والوطن والتاريخ ودفع العرب للاعتراف (باسرائيل) وعقد الصلح معها . وقد رفضت سورية ، بدفع من القوى الوطنية الشعبية والعسكرية ، المشروع الامريكي جملة وعبرت عن تحفظها تجاه اي تدخل

في شؤونها وفي برنامجها الاقتصادي . ومن هذا المنطلق نشطت السياسة الخارجية السورية الى البحث عن تحالفات لا تهدد الاستقلال الوطني للبلاد ، وبدات آنذاك اتصالات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي ، لمواجهة تحركات الحلف الغربي ومناوراته المكشوفة التي تحددت بوضوح في البيان الثلاثي (الامريكي ــ البريطاني ــ الفرنسي) الذي ينص على تكريس الوضع الدولي القائم في المنطقة بعد اتفاقيات الهدنة ولم يهدىء من روع العرب ما تضمنه التصريح عن تقليص توريد الاسلحة الى المنطقة، والمقصود بذلك تخفيف المساعدات العسكرية الغربية للعدو الصهيوني . وفي غمرة هذا الجو الدولي المشحون توصل العرب ، اعضاء جامعة الدول العربية ، في ١٣ نيسان ١٩٥٠ الى عقد ميثاق للدفاع المشترك بقي بعدئذ في حيز الاماني ولم يشكل في يوم من الايام قوة رادعة .

وكما كانت السياسة الصهيونية صريحة في برنامجها العدواني القائم على الاغتصاب والاستيطان في الارض العربية السليبة ، اخذت السياسة الامريكية تتبلور بوضوح بعد أن تسلمت في المنطقة الدور الذي لعبته بريطانيا قبل الحرب . ويمكن تلخيص السياسة الامريكية آنذاك في هدفين :

اولا السعي الحثيث لدفع سورية في معمعة الحرب الباردة الناشئة بين المعسكرين بزجها في سلسلة الاحلاف العسكرية الغربية التي كانت تعقد في المنطقة ، وثانيا الاقرار بالواقع القائم في فلسطين بعد تنفيذ وعد بلفور وصك الانتداب البريطاني باقامة الكيان الصهيوني وخلق (اسرائيل) على انقاض فلسطين واشلاء شعبها المشرد .

وبسقوط حكم الزعيم اديب الشيشكلي الدكتاتوري في ٢٥ شباط ١٩٥٤ تنتهي مرحلة من تاريخ سورية انهارت فيها السياسات الغربية الرامية الى استخدام ادوات مغامرة لاستخدامها في تسيير سياسة البلاد على الطريقة المألوفة في بلدان امريكا الوسطى واللاتينية ، وتبدأ مرحلة جديدة تواجه فيها المخططات الامبريالية قوى شعبية وطنية متعاظمة وقوى سياسية اخذت تحتل دورا أكبر على المسرح السياسي وفي مقدمتها حزب البعث العربي الاشتراكي .

إلا ان امريكا جددت مساعيها بطرح مشروعات جديدة فعرضت مشروع (جونستون) لاستثمار مياه الاردن (١٩٥٤) وجعلت الكيان الصهيوني شريكا فيه الى جانب الدول العربية ، متجاهلة اساس القضية الفلسطينية ، ومأساة شعب فلسطين ، لكن سورية التي كانت اكثر البلاد العربية إحساسا بعمق الجرح الفلسطيني عارضت المشروع الامريكي مرة اخرى ورفضته رفضا مطلقا . فلجأت الولايات المتحدة عندئذ الى التهديد دون أن تستطع ثني سورية عن عزمها ، وذلك في ظرف دولي دقيق كانت الولايات المتحدة ما تزال تحتل فيه موقعا متقدما على مسرح السياسة العالمية وفي حوض البحر المتوسط .

ولم تكتف الامبريالية الامريكية والغربية بالمشروعات المغلفة والمبطنة فطرحت مشروع حلف بغداد (شباط ١٩٥٥) الذي ضم تركية والعراق وايران وباكستان . وكان المخطط الامريكي يرمي الى محاصرة سورية وإحاطتها بحزام حليف للامبريالية يكمل تطويقه بالكيان الصهيوني والاسطول الامريكي في المتوسط .

لقد انعكست هذه التحركات الدبلوماسية على الحياة الداخلية للبلاد . وتجلى انقسام وجهات النظر في اتجاهين متعارضين يدعو احدهما وفي مقدمته حزب البعث العربي الاشتراكي الى التحالف مع مصر الثورة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر والى تأييد ثورة الجزائر المشتعلة ، والسير في العلاقات الدولية على اساس مبدأ الحياد الايجابي ومبادىء دول عدم الانحياز المعلنة في اول مؤتمر لها في باندونغ . بينما دعا الاتجاه الآخر الى التعاون مع حلف بغداد الذي كانت تقوده الولايات المتحدة وبريطانية التي كانت تتمتع آنذاك بنفوذ كبير في المنطقة من قبرص الى الخليج .

لكن سورية اختارت طريق المقاومة والنضال ، وعملت على توحيد مواقفها السياسية والعسكرية مع مصر الثورة . وفي حين تصاعدت فيه السياسة العدوانية للامبريالية التي عبرت في كل تصرفاتها وتوجهاتها

عن انحيازها الاعمى للكيان الصهيوني الذي عملت بكل قواها على زرعه في قلب الوطن العربي ، فلسطين ، اتجهت سورية الى تحديث جيشها والسعي الى تسليحه عن طريق كتلة الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي .

وقد برهنت القوى الوطنية في سورية على صدق عزيمتها ، عندما تجلى التحالف المصري ـ السوري إبان العدوان الثلاثي الاستعماري على قناة السويس باقدام سورية على نسف خط انابيب النفط الذي يمر من الاراضي السورية ويصب على ساحل المتوسط ، لمنع السلاح الغربي والصناعة في دول اوربة الغربية من التزود بالطاقة .

وبعد ان كانت مصر قد نجحت اثناء النزاع في فرض واقع عسكري ـ سياسي دقيق باغلاق الملاحة في قناة السويس جاء الدور السوري لدعم هذا الواقع عمليا ، فتحقق للعرب آنذاك على الصعيد الدولي لاول مرة في تاريخهم المعاصر موقف قوي بتحكمهم الفعلي في تزويد الغرب بالطاقة ، مما أثر تأثيرا حاسما على مجرى الاحداث وتطوراتها التالية ، فتحول المعتدون المهاجمون وضمن معطيات الظرف الدولي الى خاسرين مدحورين .

وكما خرجت مصر الثورة منتصرة في هذه المعركة خرجت منها سورية منتصرة ايضا . وتعزز الموقف الشعبي للقوى الوطنية بانتخابات تكميلية مرحلية جرت آنذاك وادت الى فوز المرشحين التقدميين . وفي حين ازداد فيه إقدام الاتحاد السوفياتي على تأييد النضال العربي بمساعدة مصر في تنفيذ مشروع السد العالي على النيل خطت سورية خطوة اخرى في توثيق تحالفها مع الاتحاد السوفياتي على اسس سليمة بعقد اتفاقية تعاون اقتصادي وتقني وعسكري في ٦ آب ١٩٥٧ ، بعد أن اخفقت كل المحاولات للحصول على مثل هذه المعونة من بون ولندن وواشنطن .

على ان التحالف الاستراتيجي النضالي بين سورية العربية التقدمية وبين مصر الثورة في تلك المرحلة طرح على الجماهير العربية آنذاك مسألة الوحدة العربية وهي الهدف الاول من أهداف حزب البعث العربي الاشتراكي .

سورية بين الوحدة والانفصال :

ليس من الممكن فهم ما جرى في المشرق العربي بعد العدوان الاستعماري ــ الصهيوني على مصر (العدوان الثلاثي) ، وهو ما يعرف بأزمة السويس ، دون تفهم مرامي سياسة الولايات المتحدة الامريكية لوضع حد لحياد سورية وسياستها المتميزة في المنطقة والتي أدت الى تشويش نظام الاحلاف العسكرية الغربية . ولإرغام سورية على تغيير سياستها عمدت الولايات المتحدة الامريكية مباشرة او بتحريض (اسرائيل) الى خرق متكرر لأجواء سورية والى دفع تركية لحشد قواتها على الحدود الشمالية ولتحريك الاسطول السادس الامريكي على مقربة من الشواطىء السورية .

وفي آب ١٩٥٧ ازداد الوضع الدولي حدة في المنطقة وتطور الى أزمة دولية بتصاعد المواجهة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي الذي حذر من مغبة اي عدوان يمكن أن تتعرض له سورية عن طريق تركية . وارتفعت درجة التعبئة الشعبية في سورية وفي الشرق العربي الى اقصى درجة . فاضطرت الحكومة الامريكية الى تعديل موقفها وتخفيف مظاهر التهديد في حين انتقلت المواجهة الدبلوماسية الى حلبة الامم المتحدة (ايلول ١٩٥٧) ، عندما تعاقب على منبر الامم المتحدة جون فوستر دلس وزير الخارجية الامريكية ، وأندريه جروميكو مندوب الاتحاد السوفياتي الدائم في الامم المتحدة (الرئيس السوفياتي حاليا) ونيكيتا خروشتشيف الامين العام للحزب الشيوعي ورئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي آنذاك لاعلان احتمال تطور المواجهة الى نزاع مسلح قد لا يقتصر على حدود المنطقة وحدها .

وكان الاستعداد الشعبي للمقاومة قد بلغ ذروته في تلك الفترة عندما دعي الشعب الى الامساك بزمام المبادرة ، فحفرت الخنادق

وشكلت خطوط دفاعية تحسبا لكل طارىء . وتسارعت الاحداث في تلك الفترة الدقيقة من تاريخ العرب المعاصر بصورة ارغمت بعض الدول العربية على التنصل من سياساتها المعلنة لتأييد سورية في الدفاع عن استقلالها . ولكن التنسيق كان سريعا بين الحركة الوطنية العربية في سورية وعلى راسها حزب البعث العربي الاشتراكي وبين الرئيس جمال عبد الناصر للخروج من الازمة بعد ان اصبحت سورية محل المنافسات الاقليمية والدولية التي انعكست في اختلاف وجهات النظر السياسية حول الحلول المطروحة . واعلنت **دولة الوحدة** في غمرة التأييد الشعبي العارم في سورية ومصر وفي كل انحاء الوطن العربي في ٢٢ شباط ١٩٥٨ .

على ان الولادة العسيرة لدولة الوحدة التي لم تستمر طويلاً (١٩٥٨ — ١٩٦١) ، كانت أكثر سهولة من ادارتها . فلم يقيض لأول وحدة عربية في التاريخ العربي المعاصر الاستمرار والبقاء لتضارب المواقف السياسية منها ولاضطراب النظرة اليها . فقد نظر بعضهم الى الوحدة على انها كانت انجازا سياسيا استراتيجيا كبيرا ، وقبل ان تتشكل رؤية ايديولوجية قومية واضحة كان منظور مصر الى الوحدة مختلفا عن نظرة الوحدويين في سورية والذين يرون في الوحدة الهدف القومي الاسمى الذي لا يمكن ان ينفصل عن ركني الثالوث الآخرين الحرية والاشتراكية .

وقد استفحلت الأسباب المؤدية الى الانقسام ثم الانفصال بعجز الادارة التي اقيمت آنذاك عن تدارك الازمات الداخلية المتعاقبة ، مما افسح المجال امام المداخلات الاقليمية والخارجية الجديدة لتي اجهزت على دولة الوحدة في ٢٨/٢٩ ايلول ١٩٦١ . وبعد ان تعذر انقاذ وحدة الجمهورية العربية المتحدة ، عادت سورية الى المسرح الدولي من جديد باسم الجمهورية العربية السورية .

ثورة ٨ آذار ١٩٦٣ :

وفي هذا الظرف الجديد عادت التيارات السياسية المتناقضة الى الظهور ووقعت البلاد مرة أخرى تحت وطأة الشد والجذب بين القوى

المتصارعة البورجوازية التقليدية والاصلاحية والثورية ، وانعكس تناحر المحاور العربية المتنازعة على الوضع الداخلي في سورية . ولم يكن بوسع اية حكومة من الحكومات المتعاقبة بين ١٩٦١ – ١٩٦٣ ان تحسم الموقف ما بين التوجه الى التحالف مع مصر مرة اخرى او التفاهم مع الغرب والقوى الممثلة له في المنطقة . وكان البعث قد عاد لاحتلال موقعه القومي الرائد في الاوساط الفكرية والسياسية والعسكرية بعد سقوط حكم عبد الكريم قاسم في العراق فتهاوت اركان الحكم الانفصالي المتداعي في سورية ، عندما تحركت قوات من الجيش العربي السوري للقبض على زمام الامور (٨ آذار ١٩٦٣) في الوقت الذي تحركت فيه القوى الوطنية لمساندتها وتأييد توجهاتها الثورية في الوحدة والحرية والاشتراكية .

وسرعان ما تلقت الثورة التأييد الشعبي الكاسح عندما نزلت جماهير الشعب الى الشوارع لتعبر عن فرحها ولتضع نفسها تحت تصرف المجلس الوطني لقيادة الثورة الذي أصبح السلطة العليا في البلاد . وعمت في المشرق العربي اجواء اشبه ما تكون بالاجواء التي سبقت اعلان الوحدة بين مصر وسورية ، عندما اعلنت الدعوة الى ميثاق عربي مشترك يضم كل الدول العربية التقدمية والوحدوية . وبادرت سورية الى اعلان توجهاتها الوحدوية لتضع البلاد في مسار مناقض للمسار الذي ساد في الفترة التي اعقبت ايلول ١٩٦١ .

وطرحت وجهات النظر المختلفة في الصحافة . وبدا التنازع واضحا بين خطتين تتمثل اولاهما في العودة الى نظام الوحدة السابق . ويتمثل ثانيهما في دراسة مشروع صيغة دستورية جديدة للوحدة ؛ لبنائها من جديد على أسس قوية تحول دون اي انهيار سريع . وبينما بدأت الخطوات العملية لتنفيذ هذه الخطة بتوقيع ١٧ نيسان ١٩٦٣ ظهر الخلاف حول شكل قيادة الدولة وصيغة ادارتها والبنية الوحدوية المقترحة . وظهرت في خضم الاحداث المتتابعة الحاجة الماسة الى ايجاد الاداة الثوريةالقادرة على المحافظة علىوحدة قيادة الثورة واستمراريتها.

وحينما اتضح تعذر الوصول الى صيغة وحدوية مشتركة متفاهم عليها بقيت سورية وحدها لتبني دولة عربية وحدوية اشتراكية تدعو

العرب اليها بدلا من التوجه الى الوحدة قبل بناء القاعدة القومية اللازمة لانجاحها ولاستمرارها .

وهكذا جاءت ثورة القوى الشعبية الوحدوية التقدمية وعلى رأسها فصائل البعث العربي الاشتراكي في الثامن من آذار ١٩٦٣ لتحسم الموقف ولكي تمهد لنقل السلطة في البلاد الى أيدي قوى الثورة والتغيير والتقدم والوحدة من اجل العمل لبناء الدولة العربية الاشتراكية التي تطمح الجماهير العربية الى تحقيقها .

على أن الثورة كما هو الحال في الثورات الكبرى لا يمكن ان تكون يوما واحدا ، انها حركة دائمة على الطريق ، وهي أيام تتجدد وتكمل مسيرة الأيام التي سبقتها . فبعد اعلان الدستور المؤقت لعام ١٩٦٤ الذي حددت فيه سلطات الدولة وأهداف الثورة المرحلية اتضح التوجه الايديولوجي الثوري الجديد . واعلنت أولى القرارات الهامة للثورة بتأميم المصادر البترولية والمعدنية والشركات التجارية والصناعية وتوسيع سلطة النقابات العمالية والبدء بمشروع سد الفرات .

أما أهم القرارات التي صدرت عن سورية الثورة فهو ارغام **شركة البترول البريطانية** (آ. بي. سي) في عام ١٩٦٧ على توقيع اتفاق أعيد فيه النظر في استحقاقات الترانزيت والتعبئة . وبذلك تحققت للدول المنتجة للنفط مكتسبات كبيرة مما منح البعث العربي الاشتراكي اهمية كبيرة في الوطن العربي تذكر بتأميم قناة السويس ونتائجها قبل ذلك بعشر سنوات .

وكما تحركت (اسرائيل) بعد تأميم قناة السويس ، حركت الامبريالية العالمية (اسرائيل) ودعمتها في عدوانها على مصر وسورية وما تبقى من فلسطين . وتمكنت القوات الصهيونية من احتلال هضاب الجولان والمرتفعات الاستراتيجية المطلة على حوض الاردن وشمالي فلسطين . ولكن سورية الثورة استطاعت احتمال الهزة وتلقت الصدمة بعزيمة وارادة لمواجهة التحدي الجديد وخوض معركة دبلوماسية طويلة لم يسبق لها مثيل . ولكن الرد الاقوى على هذا التحدي كان بالتوجه الى بناء سورية الحديثة والقوية .

الا ان هذه المهمة لم تكن بالأمر السهل حينما اتضح التفاوت الكبير بين البرامج النظرية وبين القاعدة التحتية المتوافرة في البلاد بعد هجرة الخبرات البورجوازية في ظروف الاحداث الكبيرة ١٩٥٨ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٧ ؛ ثم جاءت الدورات المناخية الجافة بين ١٩٦٩ — ١٩٧٠ لتعطل دور سورية التقليدي بوصفها مصدّرا للحبوب والمنتوجات الزراعية .

وسادت في هذه الاثناء فترة من الصراعات الداخلية والسياسية التي هددت وحدة قيادة الثورة ، فتقدمت القوى الحزبية البعثية بقيادة الرئيس **حافظ الأسد** واستطاعت السيطرة على الموقف بتأييد القواعد الحزبية والجماهير الشعبية وهكذا قامت الحركة التصحيحية في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ لتكمل مسيرة آذار ١٩٦٣ .

الثورة بعد الحركة التصحيحية في ١٩٧٠ :

كان ابرز منجزات ثورة آذار بعد الحركة التصحيحية ، جمع شمل القوى السياسية الوطنية وحشد التيارات الوطنية التقدمية في جبهة مركزية واحدة ، وهو انجاز لم يتحقق من قبل بهذه الصورة وهذه الصيغة في تاريخ سورية المعاصر وسن للبلاد دستور جديد . وقد تولى الرئيس حافظ الاسد القيادة في هذه المرحلة ، محددا برنامج الثورة في اتجاهين : متابعة التغيير الثوري لاستكمال اهداف ثورة آذار في الداخل، والابقاء على حالة الحرب والدفاع في السياسة العربية والخارجية .

وكان أبرز انجازات الثورة في هذا العهد ، وبعد رفض كل تسوية مع العدو في ضوء الوضع الجديد الناجم عن عدوان ١٩٦٧ ، الاعداد للثار بالتنسيق مع مصر التي كانت تستعد بدورها لعبور قناة السويس من اجل استرداد سيناء . وقد فاجأت القوات العربية السورية العدو في جبهة الجولان في ٦ تشرين الاول ١٩٧٣ ؛ وخاضت معه حربا شاملة في البر والبحر والجو ولم يتوقف اطلاق النار حتى ٢٤ تشرين الاول . وبعد ان مضت حكومة المتواطىء والمتخاذل انور السادات في سياسة التفاهم المنفرد دون سورية كان على سورية أن تواجه وحدها الوضع الجديد لاسترداد الاراضي العربية السورية في الجولان الذي كان العدو يتابع فيها سياسة الاستيطان والتهويد بعد قرار الضم الذي اعلن في ١٤ كانون الاول ١٩٨١ رغم المقاومة العربية الباسلة .

واستطاعت سورية بفعالية تكوين موقف واضح وحازم من الازمة التي تكونت في الشر قالاوسط واستطالت في صراعات وحروب جانبية حول القضية العربية القومية ، دون الانجرار الى الحل الاستسلامي الذي انتهى الى القبول بأسلوب الدبلوماسية الامريكية المؤدية الى كامب ديفيد. وفي حين استطاعت فيه (اسرائيل) اسكات الجبهات العربية ، بقيت سورية عمليا هي الجبهة العربية الوحيـدة في حالة حرب مـع العدو الصهيوني .

وبقيام سورية الثورة بدور راس الرمح العربي في مقدمة قوة الردع العربية في لبنان تنكسر خطوط خرائط سايكس ـ بيكو وتبهت الوانها وتقسيماتها المزيفة . فلم يكن بوسع سورية التخلي عن دورها القومي في لبنان المهدد بالوقوع فريسة للصهيونية والانقسام الاجتماعي . على أن الدور السوري في لبنان هو من جهة أخرى عمل استراتيجي ودفاعي لحماية الارض العربية اللبنانية والسورية من امتداد العدو الصهيوني نحو احتلال مزيد من الاراضي العربية . الا أن التحركات الامبريالية الامريكية ـ الصهيونية كانت تخلق ظروفا تعرقل احيانا فعالية هـذا الدور لتمنع سورية تحقيق الاهداف القومية بتحرير لبنان والحيلولة دون سقوطه امام التهديد الصهيوني الغاشم .

على ان اهم انجاز لسورية الثورة هـو ما تحقق لها بعـد الحركة التصحيحية من احتلال دور اقليمي متميز في شرقي البحر المتوسط وفي الوطن العربي . فان ما تم انجازه على صعيد بناء الدولة كان كبيرا اذ خرجت سورية بعد حرب تشرين الى السـاحة الدولية واضحت قوة هامة في المنطقة معترفا بها وقادرة على التعامل بجدارة مع القوى الدولية . فتعززت العلاقات مع الدول الصديقة وعلى راسها الاتحاد السـوفياتي الذي عقدت معه معاهدة صداقة وتعاون في ٨ تشرين الاول ١٩٨٠ ؛ وتجلى هذا التعاون على أعلى مستوى باشتراك طيارين فضائيين سوريين في برنامج ابحاث الفضاء للاغراض العلمية والسلمية . الا ان الدبلوماسية السـورية المتوازنة لم تهمل الدوائر الدولية الاخرى في اوربة وامريكا وفي كتلة دول عدم الانحياز ودول منظمة المؤتمر الاسلامي .

واستطاعت فعالية السياسة العربية السـورية أن تجر الاهتمام الدولي الى دمشق عندما اضحت سورية الثورة طرفا مباشرا في الصراع العربي ـ

الصهيوني من منطلق ان المعركة ضد الصهيونية هي معركة قومية لسورية موقع اساسي فيها . وقد خاضت سورية صراعا حربيا ودبلوماسيا ضد الاجتياح الصهيوني للبنان في حزيران ١٩٨٢ وضد اتفاق ١٧ أيار ١٩٨٣ الى أن تمكنت من الغاء هذا الاتفاق واعادة لبنان الى حضن الوطن العربي لاحتلال مكانه الاصيل فيه ، فتمت بذلك محاصرة دبلوماسية (كامب ديفيد) وحصرها قبل اسقاطها .

وبعد مضي ربع قرن على الثورة يبقى هناك مجال كبير للتأمل والتفكير والمقارنة بين الاهداف الكبيرة وبين ما تحقق منها ..

وفي وقفة مع الذات، يتطلع فيها المرء نحو المستقبل يبقى الانسان ـ المجتمع هو الهدف الاكبر الذي ترسم من أجله الخطط وتوضع البرامج والاهداف . فلهذا الانسان حدث التغيير الكبير بفتح أبواب العلم والمعرفة المتعطشين اليهما في كل انحاء القطر ، ومن اجله شقت احدث شبكة طرق ومواصلات في المنطقة ومدت اسلاك الكهرباء لادخال اسباب الحضارة الى كل بيت في قرى الريف ليكون الريف والقرية كالمدينة في بلد المجتمع الموحد .

واننا ونحن نرصد المنجزات الضخمة للثورة نتطلع الى مزيد من الجهد في الادارة والتطبيق لتلافي كل السلبيات التي تعوق تنفيذ الخطط الكبرى المرسومة لتحديث الاقتصاد والادارة وزيادة الانتاج واستكمال تنفيذ المشروعات الزراعية ومشروعات الري الكبرى لتدارك الطوارىء المناخية المعيقة ، والتمكن من استغلال الموارد الضخمة التي تملكها البلاد وبخاصة الموارد الزراعية وكذلك الموارد والثروات المعدنية من حديد وفوسفات واملاح ونفط وغاز وغيرها ...

ان سورية لولا الظروف الدولية التي تتدخل بوتيرة متعاقبة لاعاقة مسيرة البلاد لتمكنت من تحقيق بنية اقتصادية متوازنة تجعل منها بسرعة بلدا يمكن ان يتجاوز وضعه الراهن بين البلدان النامية ليصبح من البلدان الناهضة السائرة بعزم وحزم نحو مزيد من الانتاج والتقدم لتحقيق الاهداف الثورية التي اختارتها شعارا لها ولا محيد لها عن العمل من أجل تحقيقها لانها هي طريق الامل الى المستقبل المنشود .

د. محمد حرب فرزات

هوامش ثورية

قمر كيلاني

من الممكن الآن ... وقد مضى ربع قرن على ثورة آذار ان نتحدث عن التغيرات الاجتماعية الحاصلة بدلالاتها العميقة بعد ان ترسخت جذور هذه الثورة وخاصة فيما يتعلق بنواحي الاسرة وانطلاقة المراة .

هذه المقالة ليست دراسة اختصاصية ولا معمقة وانما هي هوامش ثورية ان صح التعبير فنحن الجيل الذي ساهم في الثورة ـ بشكل أو بآخر ـ ونحن الجيل الذي عايش الثورة وتفاعل معها اخذا وعطاء . وبحكم موقعنا كنساء .... ومن وجهة نظر اجتماعية محددة ـ اعني الاسرة ـ واخرى أوسع واشمل هي المجتمع العربي السوري خاصة والمجتمع العربي عامة نستطيع ان نتحدث بما يشبه السبر الواقعي الاجتماعي .

لا شك ان تغييرات كثيرة حصلت في المجتمع ... وعلى المستوى الذي ذكرت لكن تغييرات من هذا النوع لا تبين آثارها في مدة زمنية محددة بل لابد لها من سنين اقلها عقد من الزمن فهي مرتبطة ارتباطا قويا به وهي تدخل في قناعات الناس عن طريق الممارسة لا اليقين فقط والقناعة بصحتها وجدواها . قد تكون القوانين مدخلا لهذا اليقين ... وقد تكون الريادة الثورية نموذجا ولكن ليس بالضرورة ان يؤديا الى النتيجة المطلوبة . وهذا التآخذ بين الطرفين هو الدافع الى النهوض والمحرك والباعث له . واذا ما تذكرنا تلك الفترات من الجمود والاضطراب بين عهدين سابقين اعني العهد العثماني اولا والانتداب الفرنسي ثانيا وما تلاهما من قلقلة وزعزعة ايام الحكومات التي اعقبت الاستقلال بدا لنا واضحا ــ من خلال عهد الوحدة الذي احدث هزة في المجتمع العربي السوري ــ ان التطلع الى التغيرات الثورية ــ ان صح التعبير ــ اصبح مطلبا ومحرضا ودافعا .

لم يكن المجتمع العربي السوري آنذاك هو مجتمع (النخبة) او مجتمع (الطبقة) كما يقدر بعض الباحثين ... على العكس كان مجتمع البسطاء والكادحين الذين استطاعوا رغم ظروفهم الصعبة ــ ان يعلموا اولادهم من ذكور واناث وان يدخلوهم الجامعات وربما ارسلوهم في بعثات للتخصص خارج البلاد . هؤلاء هم الذين قامت على اكتافهم الثورة وهم الذين بنوها وأمدوها بالحماية ودافعوا عنها لانها في الاصل انبثقت عنهم . صحيح انه كان هناك فرز طبقي أو شبه طبقي حددته الظروف الاقتصادية الناجمة في اعقاب الحرب العالمية الثانية ... وصحيح انه كانت هناك (بورجوازية) صغيرة لكن هذا الفرز كان مخلخل الحدود وتلك البورجوازية كانت ضيقة الافاق ومحدودة لم تستطع ان تتوسع وتصمد على العكس اختنقت نتيجة عدم تلازمها مع الوعي الاجتماعي الذي هو شرط بقائها ونموها واستمرارها .

ان التغييرات في البنية الثقافية ادت الى الثورة الاجتماعية وما تبع ذلك من تغيرات في المفاهيم . ومن الثابت والاكيد ان قلة قليلة من

المتعلمين والمتنورين خارج هذا الاطار قد ساهمت وشاركت في البنية الاساسية فهي اما متقوقعة على الذات في تآكل وانهيار في حالة انحصارها في طبقة . واما منشعلة بالذات في انبهار ولهاث وراء النموذج الغربي في حالة دورانها في فلك البورجوازية الصغيرة . اما الطلائع الثورية من الفئات التي ذكرناها اعني البسطاء والكادحين من عمال وفلاحين منضمة اليها القلة القليلة من المتعلمين والمتنورين خارج هذا الاطار فهي التي حملت الرسالة . والطلائع الثورية دائما تحمل افكار (الانتلجنسيا) وتأخذ موقعها والتي هي رغم ابتعادها طبقيا ـ ربما ـ فهي قادرة على ان تنظر وتخطط وتضع الاسس للاصلاحات والثورات . ليس هذا في بلادنا فحسب او في دول العالم الثالث بل في كل ثورات العالم الكبرى بما فيها الثورات الدموية كالثورة الفرنسية او تلك التي قلبت النظم الاجتماعية اساسا كالثورة الاشتراكية المظمى في الاتحاد السوفيتي . والمثقفون اللامعون الذين ينفصلون عن طبقتهم ـ فكريا على الاقل ـ يصبحون مع المثقفين الثوريين في خط واحد يهدون الى الطريق وان هم لم يشتوها فقد تصوروها او بشروا بها .

والمرأة المتعلمة الواعية لم تكن بعيدة عن هذا الاطار ... فقد ساهمت في الانتماءات الفكرية والسياسية وربما الحزبية ايضا ... لكن ذلك كان بخطى مترددة ... وفي نطاق ضيق ... وربما بعيدا عن العلنية والمباشرة في حمل المهام . وعندما اقول المتعلمة الواعية فانا اقصد بمساحة واسعة تلك التي اتيحت لها فرص التعليم ـ الجامعي خاصة ـ والتي عموما حطمت قيود البورجوازية الضيقة او استمدت زيت وقودها من اجواء المثقفين الثوريين سواء بالاندماج او بالانتماء .

ان الجدل الذي أثارته الخطوات الاولى مما يلفت انتباه الدارس .. لكنه لم يكن جدلا مفصولا عن الفعل بل ان كل ممارسة عملية كان تصاحب او تعقب بمجادلات طويلة قد تبدو في نظر بعضهم تبريرات لكنها في الواقع كانت سبلا للقناعات . لابد ان اخطاء وقعت ... وان اناسا سقطوا على الطريق لكن الامور عادة تستقيم من خلال ذلك وما من ثورة وخاصة في

البدايات الا وتستفيد من اخطائها .... اما المرأة فقد كان الثمن الذي دفعته باهظا ... على حسابها شخصيا او اجتماعيا او على حساب الاسرة . الا انها قد شقت الطريق وكتبت صفحة جديدة لتاريخها الذي كان يزاوج بين التبعية التامة للرجل مضافا اليها الجهل والتخلف او الدوران في فلك المواصفات الاجتماعية التي وان ادعت مشاريع اجتماعية وخيرية وربما ثقافية انما كان هدفها ابراز المرأة لا تلك المشاريع بالذات كفاية .

لو عدنا بالذاكرة الى أعوام ٦٢ ـ ٦٧ قبل نكسة حزيران اي الى الاعوام الاربعة الاولى للثورة لوجدنا ان المقول كما الصدور كانت متفتحة لتلقي المتغيرات الاجتماعية والمرأة كانت اكثر حماسة وخاصة أن ابواب التعليم والوظائف فتحت امامها وكان للثورة الفضل في ذلك اضافة الى دعوتها للمشاركة في بناء المجتمع الاشتراكي عن طريق منظمات ومؤسسات ونقابات لا نستبعد منها الثقافية ايضا . ان الشجرة في قطعها التجديدي تملك ربيعها المتغير ... هكذا كانت الثورة . واعمد الى هذه الصورة لان الامور لا تحدث في الفراغ والشجرة هي نفسها بمقوماتها ونسغها وبما يمكن ان تطرحه من ثمار لكن القطع اضافة الى قلب التربة وتهيئة المناخ ورمي الاغصان التي ضمرت ويبست او هزلت كل ذلك كان الباعث لاعداد من الربيع كانت وعدا وبشارة كما كانت املا. يخطىء من يظن ان الثورات تخلق الناس من جديد .... انما هي تعيد معادلة تركيبهم وعلى المستوى الاجتماعي يكون هذا اوضح . العمل للمرأة كان ترفا فكريا او اقتصاديا ثم اصبح ضرورة وطنية وقومية . هنا تغيير المعادلة . الانتاج الوطني واجب وفي الثورة يغدو فرضا او الزاما . العدالة الاجتماعية هدف وجداني او اخلاقي وهنا شرط ثوري وهكذا ...

ما هو كائن كيف ينبغي ان يكون . هذه هي المسألة . ان التحول كان كيفيا وعلى مستوى المرأة كان بطيئا ويتعرض باستمرار لازمات ونكسات تمسح الجهود المبذولة في سبيل قوى تدفع الى الامام . لكننا

وفي الثورة اصبحنا امام انتقال نوعي . التعليم مثلا ـ للجنسين ـ تحمل الثورة عبء مجانيته ـ ومن ثم مشروع الزاميته ـ فتح الابواب واسعة امام دخول الوعي الى كل بيت حتى في كل قرية مهما كانت صغيرة أو نائية بوسائل شتى من شق الطرقات وتعميم الكهرباء الى فتح المدارس وايصال الاذاعة والصحف وتأسيس مراكز الاشعاع والثقافة . وآثار ذلك تتضح الان .

لا داعي للاسف ان يكون سائق التاكسي متعلما او جامعيا ربما . انما لو كان بالامكان ان يعطي افضل في مكان اخر فهنا الاسف وكذلك العاملة والمستخدمة يجب ان تكون على مستوى معين من التعليم . والمرأة التي تعلمت ـ حتى المرحلة الجامعية ؛ وان هي لم تعمل فيكفي انها تبني اسرة وتنشىء اطفالا عن وعي وادراك لمسؤوليتها ان مبدأ المساواة بين الجنسين لا يطبق بسرعة ولا بشكله الواضح مادام يصطدم برواسب اجتماعية وبتقاليد وعادات لها جذورها الراسخة ومبدأ التكافؤ ـ تكافؤ الفرص ـ يقع في اشكالية عندما لا يكون هناك سبر حقيقي للامكانيات من قبل الاشخاص انفسهم او من قبل جهات معنية بهم فيتوجهون في غير الوجهة التي تناسبهم او يناط بهم ما هم غير قادرين على حمله وعندما يفشلون او يحبطون لا تكون هناك مراجعة للذات أو للموقف لاسيما وان مخلفات كثيرة لاتزال راسبة مثلا . ظلت الفكرة الماضية توحي بأن التعليم يرادف الوظيفة او المكانة الاجتماعية علما بأن التصنيف يجب أن يتم حسب سلم الامكانات والتدرج فيها من حيث اسسها القيمية بالدرجة الاولى ربما ان العمل في حد ذاته قيمة فليست المفاضلة واردة بين عمل واخر . ولعل المرأة وقعت في هذا الخطأ فأصرت على ان تقتحم ميادين معينة كالطب والهندسة والتدريس ـ بما فيه الجامعي ـ ولعلها من خلال تأثيرها في الاسرة قد ساهمت في هذا التوجيه للذكور ايضا مما ساعد على تكريس تلك الفكرة بدلا من محوها وازالتها .

علينا ايضا ان نلاحظ جملة من العوامل التاريخية ذات صلة بالثورة الاجتماعية فنكسة حزيران ٦٧ مثلا وما تبعها من احباط على المستوى

القومي والسياسي ... والاضطراب الذي تركته بحيث هاجرت أعداد كبيرة من الناس فازدحمت بها المدن .. او غادرت البلاد الى الخارج .. او انتقلت من مدينة الى اخرى او من الريف الى المدن . كل هذا وغيره من العوامل الاقتصادية لاسباب المواجهة او التحول نحو الاشتراكية جعل الثورة الاجتماعية لا تأخذ ابعادها الحقيقية كثورة من اجل الثورة .

اما بعد حرب تشرين فقد كان لاسترداد الانسان العربي كرامته واحساسه بالقدرة اثر كبير على رفع روحه المعنوية اضافة الى المسيرة الواضحة في خطين متوازيين هما البناء والتحرير .

عن هذه المرحلة من الثورة نتحدث باستفاضة نسبية :

ماركس يقول « ان قوة الافكار تصبح طاغية عندما تتجسد للجماهير فتتحول الى قوة حادة وعندها تستطيع ان تغير » . هذا صحيح في مرحلتنا والفارق أن هذه الافكار ليست مفروضة من الخارج بل هي منبثقة من الداخل ... داخل الجماهير

أقول ان العوامل الكثيرة من تاريخية وغيرها ... والحدث الكبير اي حرب تشرين اضافة الى استيعاب الجماهير لمرحلتها ولمسؤوليتها في هذه المرحلة جعلها تقطع اشواطا وتحرق مسافات .

لقد تساوقت هذه الجماهير مع مجمل الحركة الثورية واخذت تنسجم معها نتيجة الاطار التاريخي العام الذي اصبح يحيط بها وربما يضغط عليها على المستوى الدولي . وبما ان سوريا أصبحت المحور الذي وقف ضد كامب دايفيد فقد استقطب المجتمع العربي السوري التواصل العربي عامة كما أصبح في بؤرة الضوء بالنسبة للعالم الخارجي. أما التواصل العربي فقد أتاح له أن يقارن وأن يمايز وأن يدرك مدى الخطوات التي سارها نحو التقدم والاشتراكية فهو اذن قد أصبح حريصا عليها مهما كانت الصعوبات في وجهه ومن كونه في بؤرة الضوء بالنسبة للعالم الخارجي ولضغوطاته ومناوراته وأطماعه ايضا فقد جعله أكثر وعيا بدوره التاريخي في خط المواجهة مع الامبريالية والصهيونية . ليس من سبيل لنسيان ذلك التعاضد الجماهيري الذي بدا واضحا أثناء

حرب تشرين وظل ممتدا بعدها بحيث غدت التضحيات الفردية قبل الجماعية علامة على المجتمع السوري وغدت الشهادة شعارا . ولا مجال لنكران او تجاهل الوعي الذي اصبح يتمتع به المواطن العادي بما يلفت انتباه حتى من يمر بحركة سريعة في قلب الجماهير . وبديهي أن الجماهير لا تندفع نحو مراكز الامور الا من خلال فاعلية ذات ماهية تتجسد في الممارسة .

اذن ..... نظرة الى المجتمع السوري وما طرا عليه من تغيرات خلال عقد ونصفه او اكثر بقليل من الزمن تعطي الاجابة على كثير من الاسئلة حتى بالنسبة للذين لم يعوا بوضوح المرحلة (قبل) فهم عن طريق الملاحظة والفهم وما يمكن ان يتلقوه من جيل سبق من المقارنات يستطيعون ان يصلوا الى نتيجة فما بالنا بالذين زامنوا وعايشوا ؟ ان التغير الحاصل هو الذي تم في بنية المجتمع (التحتية) متغلغلا في كل الفئات ولا اقول الطبقات لان هذه الفوارق قد ذابت بطبيعتها او تحددت . اما بنية المجتمع (الفوقية) وما يتعلق منها بقضايا الفكر والثقافة والادب فهي لا شك متاثرة بالاولى متواشجة معها ان لم نقل داخلة في نسيجها او مؤثرة فيها بالنظرية والفعل .

امامنا بعض من الدلائل على سبيل العرض والمثل وليس الحصر . ارتفاع نسبة التعليم الاعدادي والثانوي والاقبال الكبير على التعليم الجامعي ؛ الاهتمام بالمعاهد التخصصية وفتح الآفاق أمام التدريب المهني بكافة انواعه ؛ دفع الطاقات نحو العمل والانتاج الصناعي والزراعي، تشغيل اليد العاملة والافادة من العنصر البشري متسقا مع الآلة ، تنشيط حركة البناء والتعمير ترسيخ فاعليات المنظمات الشعبية وامتدادها نحو أكبر قطاعات الجماهير بمن فيهم الاطفال واليافعين والشبيبة ... تزويد الجماهير باحتياجاتها في الاعلام والفن والثقافة والمسرح والكتاب بما يجعل ذلك داخلا في الحياة اليومية . الخ ..

كل هذا يدمج المرأة دمجا كليا في سائر المجالات وبنظرة مساواة فعلية مع الرجل . صحيح أن أعداد النساء في بعض المجالات لا تزال قليلة ولكن السبب يعود الى المرأة نفسها وليس الى الشروط لان حضورها جاء لاحقا بعد فترات طويلة من التراجع او الغياب في عهود

مضت كان محكوما عليها اثناءها أن تظل معزولة . المهم انها وصلت الى اكثر المناصب حساسية والتي كانت مقتصرة على الرجل (القضاء ، الوزارة ، مجالس الادارة المحلية ومجلس الشعب ، القيادات النقابية ، اللجنة المركزية للحزب . الخ . .) واصبح وجودها ليس طبيعيا فقط بل بديهيا ما دامت تملك الامكانات والقدرات على حد سواء مع الرجل .

هذا بطبيعته انعكس على نظرة المجتمع ككل الى المرأة اذ سادها القبول والاحترام وترك آثاره على الاسرة عندما اصبح عمل المرأة مهما كان نوعه أمرا في الصميم كما وانه ازال العوائق امام طموحات من هذا هذا القبيل لاجيال قادمة من النساء .

لا بد ان نشير ايضا الى أن مجتمعات اخرى في مثل هذه الاحوال تصاب بالتخلخل في بناها الاجتماعية . تتفكك فيها الاسرة ويتعرض الفرد لردود افعال وربما تغيرت صورة المجتمع كليا الا ان المجتمع العربي السوري ظل يحافظ على روحه الاصيلة وعلى ما سلم وصح من عاداته وتقاليده الاجتماعية وظلت الاسرة في تماسكها كخلية اساسية في البناء الاجتماعي كما حافظ الفرد على شخصيته المميزة خلال المشروع الثوري وهو يساهم بفعالية في بناء بلاده وحضارة امته .

انها الطاقة المتفتحة داخل الانسان على هذه الارض تجعله دائما قادرا على أن يتكيف وان يعطي الافضل وان يظل واقفا على قدميه مهما اشتدت عليه الضغوط من الخارج لا سيما وان هذه الضغوط تزداد حدة من الصهيونية والامبريالية كلما احست ان هذا المجتمع يشكل كتلة متراصة لا سبيل الى النفاذ اليها او ضربها من الداخل .

للمجتمعات ايضا تطلعاتها الحضارية والانسانية تحاول فيها ان توائم بين واقعها المستجد وبين ما تسعى اليه في مستقبل اجيالها جاهدة في بذل اقصى ما تستطيع من القدرات . ولا شك ان الطابع القومي ورسالة الاجداد المخزونة في الاعماق عبر الاجيال والتي حققت مجدهم وتفوقهم هما ما ينشده المجتمع العربي السوري في استشرافه للغد . الا ان النهج الفوقي هو الاكثر استجابة للمستجدات والمتغيرات على

الساحة العربي مع ثبات على المبدا أو المحور نظرا لما يملكه الفرد العربي السوري من وعي قومي أصبح جزءا من شخصيته . بل ومن ممارسته حتى في الحياة اليومية . وأما الرسالة التي يحملها فهي التي تخضع باستمرار لعملية اصطفائية انتقائية ولرؤية جديدة معاصرة . يؤكد ذلك الصورة المتغيرة للمجتمع بين التعصب والتصلب والانفتاح والمرونة ... بين التقيد بموروثات جامدة وبين التلين أمام مستجدات الحضارة الحديثة .

ان المجتمع العربي السوري من اكثر المجتمعات استجابة لدواعي العصر مع حفاظ على الروح الاصيلة . وهي ميزة لا يشعر بها أبناؤها لكنها ملاحظة ومدروسة . والخطوات التي خطتها المرأة بالتالي في المجتمع لم تترك من ردود الفعل أو الآثار السيئة الا الضئيل . على العكس بدت هذه الخطوات وكأنما هي انبثاق طبيعي عن واقع اجتماعي وليست اندماجا قسريا بواقع مفروض . ومن ثم لم تدفع الاسرة الثمن كما هو الحال في مجتمعات أخرى ... ولم تكن النتائج الجيدة على حساب المحصلات الجيدة .

اما عن الهوامش الثورية الثقافية المتعلقة بالظواهر الاجتماعية فانا لن اتحدث — لانه حديث يطول وتلزمه مقالات وابحاث خاصة — انما اقول ان ارضية ثقافية شاملة وواسعة وامدادا للجماهير بالكثير من وسائل الثقافة الشعبية وقريبة المتناول هو ما جعل هذه الجماهير اكثر انفتاحا على الواقع ... واكثر انفتاحا من الماضي ... واكثر وعيا بالمستقبل . ولا يجوز في هذه الحالة أن نغفل نقاطا سريعة مثل طرح الكتاب بين أيدي الناس بوفرة وبأثمان زهيدة وانتشار مراكز الاشعاع والثقافة ... وتشجيع الفن عموما والاهتمام بالفنون الشعبية خصوصا . ولا ازدياد الحركة المسرحية والسينمائية — نسبيا — أو ارساء تنظيمات فنية ومعاهد للتمثيل والموسيقى . ان لكل ذلك آثاره الايجابية وثماره المستقبلية .

واخيرا فهذه زهيرات صغيرة من بستان الثورة نقدمها باقة للقارىء في الذكرى (ربع القرنية) كهدية على شكل هوامش ثورية .

* * *